
روايات مصرية للجيب
حكاية ثُقب
سافاري
29
د. أحمد خالد توفيق

مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافريَة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لا تنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لا يمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًّا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

* * *

تمهيد كئيب نوعًا

(سافارى) من جديد ...

كانت (برنادت) الآن فى نهاية بداية الحمل ..

لقد صار الحمل مرئيًا نوعًا ، وإن كان أقرب إلى البداية منه إلى أى شىء آخر .. وقد اعتاد جسدها ذلك الدخيل الغريب ، فكفت عن عادات الحوامل المفضلة فى الصباح ، وصارت تأكل جيدًا .. طبعًا لا تتعاطى أى شىء حتى الفيتامينات لأنهم شديدو الحذر بهذا الصدد فى الغرب ..

قامت ببضع زيارات للدكتورة (ماى فاى لين) .. لا أعرف كيف يتم التفاهم بينهما ، خاصة مع لغة الطبيبة التى يمكن أن نطلق عليها (صينية مفرنسة) أو (فرنسية مصيّنة) .. وقد أجرت بعض فحوص بالأشعة التلفزيونية .. يبدو أن كل شىء على ما يرام ..

مازلت أجد غريبًا أن كروموزومات أبى الموظف بالإدارة التعليمية - رحمه الله - مستمرة فى رحم طبيبة كندية من الطرف الآخر فى العالم ، ولسوف تمتزج بجيناتها لتصنع مخلوقًا فريدًا من نوعه .. ترى هل تحمل كروموزوماتى مسحة من

كروموزومات امرأة يابانية أو شيخ من (تنزانيا) أو مهراجا من (بومباى) ؟ فى أى موضع منى توجد جينات ذلك الفلاح الفرعونى المسالم الجالس جوار النيل ينتظر الفيضان، ويحذر ابنه من التماسيح التى يتجسد فيها معبودهم (سبك) ؟ وفى أى جزء توجد جينات ذلك الفاتح العربى الأسمر القادم من الجزيرة العربية مع جيش (عمرو بن العاص) ؟

إن الأمر يثير الدوار حقًّا ...

(سافارى) من جديد ...

والحياة تمضى بذلك الانتظام المعهود .. اليوم مثل أمس، وبشىء من الحظ يمكن أن يكون غدًا مثل اليوم ما لم نمت جميعًا .. انتظام جميل .. انتظام خلاب .. انتظام ممل .. انتظام قاتل ..

حقًّا أنا أؤمن أن عين ابن آدم لايملؤها إلا التراب .. أتأرجح بين عذاب التوتر والمخاطرة وعذاب الملل .. لو عشت فإن أمامى أربعين عامًا أخرى من الدراسة وغرفة الجراحة والغداء ومشاهدة التلفزيون مع (برنادت) ليلاً .. ربما يضفى الأطفال بعض البهجة على هذا الجو، لكن هذا يعنى إضافة صخب الأطفال إلى هذه الفترة ..

الحقيقة إننى فى حالة نفسية غير طبيعية هذه الأيام .. صرت أتشاجر بسهولة ، وهذا ليس جديدًا عليكم .. لكن حالتى تفاقمت نوعًا ، وقد خطر لى خاطر مرعب : إن حياة الأخطار التى اعتدتها تلعب دور ماسورة العادم لعدوانيتى التى ولدت بها .. يقول علماء الاجتماع إن الحروب تقلل الجريمة فى المجتمع ، بل إن أحدهم تجاسر وقال : أعط الشباب حربًا جيدة يتلهون بها ..

حسن .. لا أعرف صحة هذه المقولة لكنى بحاجة إلى مشاكل من أى نوع .. إنها تنطبق علىَّ على الأقل ..

منذ دهر كف المدير عن استدعائى فى السابعة .. الموعد الذى كنت أخشاه وأرهبه وأتهرب منه صار اليوم عزيزًا إلى نفسى بشكل لا يوصف .. حتى اللعين (ليفى) كف عن التحرش بى من فترة ، ويبدو أنه مشغول فى شىء مهم .. (آرثر شيلبى) فى الولايات الآن يزور بعض معارفه ، و (بسام) مشغول جدًا بسبب بعض الخفقات الزائدة فى قلبه تجعله يخشى أن يفحصه أحد ..

(هيلجا) وحش المختبر الهائج على الدوام ، فى حالة من الهدوء النسبى ، و (سباتزانى) صار صوته خفيضًا وكف عن مشاكستى ..

وتذكرت كلمة (برادبورى Bradbury) فى (أوديسة الفضاء) : لابد أن جرائد المدينة الفاضلة مملة جدًا ..

حقًا .. ماذا يحدث هنا ؟

* * *

وقفت فى الشرفة المطلة على ليل (سافارى) البهيم ..

هناك مصابيح (نيون) لكنها لاتعكس الراحة قدر ما تعكس الوحشة والغربة . أنت تعرف هذه البقع الباردة من النور تتناثر وسط الظلام مع رائحة الليل الإفريقى الحريفة ..

ولكن ..

لماذا أبكى ؟ لا أعرف .. أشد ما يفزعنى هو البكاء الذى لاسبب له ..

للحظة انتابنى ذلك الشعور المخيف الذى يطلقون عليه اسم (جامى فو Jamais vu) وهى لفظة فرنسية معناها (لم أر هذا من قبل) .. إنه ذلك الشعور بالغربة والذعر .. من جاء بى هنا ؟ ماذا أفعله هنا ؟ من هؤلاء ؟ ومن تلك المرأة التى تعيش معى ؟ تصور أن هذه ليست (شبرا) وأن المقهى ليس عند الناصية التالية ، وهذه الفتاة ليست ابنة

خالتى ولا جارتى .. بل هى لاتمت لوطنـى بصلـة .. هؤلاء القوم أغراب .. أمى وأخى ليسا هنا .. الحمام ليس فى أول الردهة على اليمين .. التلفزيون ليس فى الصالة فوق (البوفيه) المكسور . أين شبشبى الأزرق ؟

أنا غريب !

غريييييييييييييب !!!

ولكن .. لماذا تبكى ؟ كف يا فتى .. توقف ..

وشعرت بأن فى روحى ثقبًا .. ثقبًا يتسع .. ويمتص كل ذكرياتى وحياتى وأحلامى ...

وددت لو كان شخص أعرفه بقربى .. أحكى لـه كل شىء .. أقص عليه حكاية الثقب ..

★ ★ ★

الدائرة الأولى

ثقب فى الكون

1

الصبية يمرحون .. لا نعرف السبب الذى دفع (جون ويلر) الصغير إلى الابتعاد عن رفاقه . هناك بين الأشجار زاح يزحف حتى وجد الشىء .. الشىء كان يشبه قلمًا غليظًا نوعًا ، يخرج منه حبل مغطى بمادة شمعية .

كان الإغراء أقوى من أن يقاومه طفل فى العاشرة ..

بحث فى جيوبه حتى وجد ما يريد .. كانت هناك علبة ثقاب وجدها أثناء لعبه أمس .. أخرج عودًا وحكه بالعلبة ، ثم انتظر حتى تعالت الشعلة .. قربها من الحبل وراقب النار وهى تنساب متجهة نحو الإصبع فى شغف ..

أخيرًا .. النار قد بلغت الشىء الشبيه بالقلم ..

ما جدوى هذا الشىء ومن جاء به هنا ؟

لا يعرف ..

لكنه سيتبين الأمر حالاً ...

* * *

قال (آينشتاين Einstein) للطلبة الجالسين حوله ، وبلهجته الألمانية الثقيلة :

ـ « هل أنتم مسرورون من الدراسة هنا فى (برونستون Princeton) ؟ »

كان الطلبة يشعرون بخجل لأن العالم العظيم هو الذى يقدم لهم الشاى بنفسه ، لكن البروفيسور (جون ويلر) كان قد اعتاد هذا على كل حال .. إن تواضع (أينشتاين) فاتن حقًا ، وهو يذكرك بتواضع العظماء فى كل مكان .. بينما التافهون يصعرون خدهم للناس طيلة الوقت ..

رد الطلبة فى خجل :

ـ « نعم .. نعم .. »

وجد (ويلر Wheeler) صعوبة فى الإمساك بالقدح .. إن إصبعه المبتورة من جراء ذلك الحادث فى طفولته تعوقه عن ذلك ، لكن الحادث أورثه شيئين : إصبعًا مبتورة وولعًا دائمًا بالانفجارات .. لقد أثار انبهاره كم الطاقة المدمرة التى كان إصبع الديناميت يحتويها ، والتى أخرجها من عقالها عود كبريت واهن .. ولئن كان آخرون يتحولون إلى مدمنى حرائق أو إرهابيين فإن (ويلر) قرر أن يكون عالمًا فى الطبيعة ...

لقد ظلت القوة الرهيبة المهيبة للطبيعة تهزه من الأعماق ، وقد شاهد (ويلر) ذات مرة صورة لتفجير هيدروجينى فى المحيط الهادى أزال جزيرة من على الخارطة ، فحسب قوة الانفجار .. وأثار ذهوله أنها لا تساوى إلا واحدًا على الألف من قوة الإعصار ..

قال (أينشتاين) للطلبة وهو يجلس فى كرسيه الأثير الذى يعزف الكمان عليه ، عندما يكون وحده :

ـ « يمكنكم أن تأتوا فى أى وقت .. أعرف أن نظرياتى عن ميكانيكا الكم Quantum mechanics عسيرة الفهم .. لكننا نستطيع معًا أن نزيل علامات الاستفهام .. »

سأله (ويلر) :

ـ « أصعب جزء فى نظرياتك هو الخاص بفرضية أن النجوم التى يتجاوز حجمها حدًا معينًا تنهار .. تخيل هذا مستحيل .. »

قال العالم الكبير باسمًا :

ـ « يمكن البرهنة على هذا بالمعادلات ، لكن لا تتوقع منى أن أحتفظ بنجم منهار فى غرفة نومى .. »

وضحك وضحك الجميع ..

وما لم يعرفه أحد أن هذه الجلسات خلقت عددًا لا بأس به من علماء الطبيعة .. وقد اعترف عدد منهم بذلك ، وهم يتسلمون جائزة (نوبل) أمام ملك السويد ...

أما (ويلر) فقد غرست فى أفكاره بذرة ، ظل يتعهدها بالسقيا عشرات الأعوام ..

* * *

قال (ويلر) لطلبته بعد هذا اليوم بأعوام طويلة :

ـ « إن نظرياتى تبلورت فى مبدأ (الانهيار الانجذابى Gravitational Collapse) .. لا مفر للنجوم من أن تتقلص بفعل ضغطها الذاتى الجبار ، وتنتهى إلى شىء جديد غير مألوف .. شىء صغير كثيف جدًا غير منظور .. يمتص كل شىء حتى الضوء ذاته .. »

كان قد شاخ وصارت عيناه رماديتين كئيبتين بلون الغيوم فى يوم مطير ، لكنه ظل يحتفظ بقامته الفارعة العملاقة المتينة ، وصوته الخفيض الذى يرهقك فى سماعه .. وكان يفخر بأنه بسيط جدًا ، وأنه لو سمع محاضراته طفل فى العاشرة لفهم أكثرها .. واليوم كان يشرح لتلاميذه مفهومًا صعبًا ...

بدا على تلاميذه الإرهاق الذى يبدو على وجوهنا كلما سمعنا لفظة (أبدية) ، وتبادلوا النظرات ..

سأله أحدهم وهو يبتلع ريقه :

- « هل تعنى أن هذا النجم غير مرئى ؟ »

- « نعم .. إنه ثقب .. ثقب أسود Dark hole .. »

ثم راح يرسم على لوح الكتابة صورة تخيلية لهذا الثقب الأسود .. وقال :

- « تخيل رائد فضاء يقترب بمركبته من هذ النجم الذى هو أكبر عشر مرات من الشمس .. سيجد أن سفينته تتجه بقوة غير مسبوقة إلى هذا الثقب .. ربما رأى شيئًا كهذا .. »

ورسم نجمًا مجاورًا يخرج منه شىء كالفطيرة لينصب فى الثقب الأسود ..

- « هذا الثقب يبتلع النجوم المجاورة .. يبتلع كل شىء .. أما حزام النور هذا .. »

ورسم نطاقًا ضوئيًا حول الثقب الأسود ، وأردف :

ـ « ... فندعوه (أفق الحدثان) .. أى مراقب خارج هذه المنطقة لايرى شيئًا ولا يسمع شيئًا مما يدور فى الثقب الأسود .. لكن لقد اقترب الرائد كثيرًا .. صحيح أنه على بعد خمسة آلاف كيلومتر ، لكن ـ بلغة الكون ـ معنى هذا أنه ملاصق للثقب الأسود .. إنه ينجرف إليه .. والآن تعال نقف فى سفينة أخرى ونراقب المشهد .. »

ورسم سفينة فضاء صغيرة على بعد من الثقب ، وقال :

ـ « هذه السفينة تقلنا .. ماذا نرى ؟ نرى أن حركة الرائد البائس الذى يبتلعه الثقب قد صارت بطيئة جدًا .. السبب هو أن الزمن نفسه يتباطأ قرب الثقوب السوداء .. والآن اجتاز الرائد أفق الحدثان .. أخ ! لقد غاب عن عيوننا للأبد .. »

شهق بعض الطلاب وقد تخيلوا أنفسهم فى هذا الموقف ، والبعض شهق لأن تخيل هذا عسير ..

قال (ويلر) وهو يمسح لوح الكتابة :

ـ « الحقيقة أن هناك مادة سوداء غير مرئية تربط أجزاء الكون ببعضها .. سرعة دوران المجرات توحى بهذا .. هى لاتدور كأجسام حرة منفصلة ولكن تشعرك بأن هناك ملاطًا لاتراه عيوننا

بين أجزائها .. ملاطًا لاتراه عيوننا .. ثم هناك نظرية التمدد الانفجارى inflationary big bang .. النظرية تقول إن الكون يتمدد .. وملاحظاتنا تقول إن الكون يتمدد بطريقة توحى بأن كتلته تفوق ما نراه مائة مرة .. معنى هذا أننا لانرى 99% من مادة الكون .. مم تتكون تلك المادة ؟ هل من الثقوب السوداء أم من الأقزام البنية Brown dwarfs التى هى نجوم أضعف من شمسنا ؟ لا أحد يعرف .. »

قال أحد الطلبة الأذكياء :

- « لكن كيف نتحقق من هذا كله ؟ لاشىء يبدو عبر الثقب الأسود .. »

حقًا كانت هذه هى المشكلة بالنسبة لـ (ويلر) ..

وسط كل هذه المعادلات الفيزيائية يتعذر إيجاد دليل ملموس منظور ..

لكنه سيتبين الأمر حالاً ..

★ ★ ★

الدائرة الثانية

ثقب فى الفضاء

1

كنت منهمكًا مع د. (شنج ـ هاو ـ شيانج) الكورى إياه، جالسين فى غرفة المراقبة التى تشغل جهاز الأشعة المقطعية، وهى ـ كما تعرفون ـ من أسوأ لحظات حياتى، لكن تعلم هذا الشىء لا غنى له لمن يرغب فى أن يكون جراحًا ..

كان هو منهمكًا فى تعليمى متحدثًا كالعادة عن (أشجار السرو التى لا تنمو إلا ...)، حين سمعت صوت مكبر الصوت ينادينى ...

كان المكبر يحاول جاهدًا أن ينطق اسمى الذى صدئت مقاطعه من فرط عدم الاستعمال، وشعرت للحظة بغرابة الاسم وهو يتكرر عدة مرات بالطريقة إياها :

ـ « دكتور آلا أبدل آزيم .. دكتور آلا أبدل آزيم .. »

وتذكرت طريقة النداء عندنا فى المصالح الحكومية التى تستعمل مكبر الصوت : المعاون (بيومى) التواجد فى

مكتب المدير للأهمية . لسبب ما يصر هؤلاء على حذف حرف الجر (على) قبل الاسم حتى تغدو العبارة غير مفهومة ، وهذا يكسبها الطابع الحكومى الروتينى المطلوب ..

- « يجب أن أذهب يا سيدى .. »

- « بالتأكيد .. »

قالها بطريقته الآسيوية المهذبة المفرطة فى الضحك فنهضت .. قلبى يخفق توترًا .. ربما سأجد حقًا ما يشغلنى فى الأيام القادمة .. بعض المسحوق يزيل الصدأ عن وجه الحياة ..

هكذا توجهت إلى مكتبه متظاهرًا بالوقار ، لكننى كدت أركض من فرط الطرب ..

وراح عقلى يزين لى ما سأجده فى مكتبه .. مجموعة من السحرة يطالبون برأسه .. مريض بوباء جديد يتلوى على الأرض وينزف .. ضبع يتحرش به وهو متكور فوق المكتب يصرخ .. مجموعة من الإرهابيين يطالبون بعدة مليارات من الدولارات .. أو .. ربما ما هو أخطر .. ربما هو ...

- « د. (عبد العظيم) .. أقدم لك د. (جيرار لومبان ..) ! »

★ ★ ★

كان (لومبان) هذا هو أغرب كائن يمكن تخيلـه .. ليس من ناحية الإثارة ولا الطرافة ، بل لأنه ـ فعلاً ـ أعجب كائن فى العالم . كان قصير القامة بشكل غير عادى إلى حد أن قدميه لا تلمسانِ الأرض حيث جلس .. وكانت رأسه عملاقة لا أعرف كيف يستطيع حملها .. هناك نوعان من قصيرى القامة إلى هذا الحد : القزم والقمىء .. القزم متناسق الملامح يتمشى رأسه مع جسده ، وهو بهذا لا يبدو قصيرًا بل يبدو (بعيدًا) لو كنت تفهم ما أعنيه .. أما القمىء ـ وهى ليست سبة ـ فرأسه ناضجة كبيرة الحجم بينما جسمه صغير .. لم يكن (لومبـان) هـذا ينتمى إلى أى نـوع من النوعين ، وهنا يكمن سر غرابته ..

فيما عدا هذا كان متأنقًا أكثر من اللازم ، وله صوت جهير رنان يبدو أنـه اعتاد بـه تحاشى زملائه الذين قد يسخرون منه ..

كتمت خواطرى وجلست وحاولت ألا أنظر له أكثر من اللازم .. فقط غمغمت فى سرى : الحمد لله الذى عافانا .. ثم جلست أصغى فى أدب ..

قال لى (بارتلبيه) وهو يعرف بالتأكيد ما يدور فى ذهنى :

ـ « د. (لومبان) زميل عزيز .. ويهمنى أمـره بالتـأكيد .. إن مهمته محـددة تمامًا هى أن يعرف عدد حـالات بعض الأمـراض الجلديـة المعينـة فى وحدتنـا خـلال فـترة زمنيـة معينة .. هل بوسعك أن تساعده فى هذا ؟ »

أمراض جلدية ؟ هذه هى المهمة المثيرة التى كنت أتطلع إليها ؟

قلت فى خيبة أمل :

ـ « لكننى لست بخير من يفيده فى هذه النقطة يا سيدى »

بدا عليه الغيظ ، فهو يكره إطالة الجدال أمام الغرباء .. قال لى :

ـ « الأمر لا يحتاج إلى عبقرى فى الأمراض الجلدية مثل (هبرا Hepra) .. كل ما هنالك أنك سترافقه أثناء بحثه فى قاعدة البيانات عندنا .. إنه يبحث عن ؟ »

ونظر لزميله على طريقـة (قلت ـ لى ـ ماذا ؟) ، فقـال (لومبان) :

ـ « السرطان الأسود Melanoma .. سـرطان الخلايـا القاعدية .. حالات إعتام عدسة العين غير المفهومة .. »

قلت باسمًا :

ـ « أما هذه الأخيرة فلا تمت للأمراض الجلدية بصلة ، لكنى معجب بتفرع دائرة اهتماماتك .. »

ومن جديد قلت للمدير :

ـ « هناك من هو أفضل منى فى هذا الصدد .. »

نظر لى من جديد .. كنت أفهم ما يريد قوله .. هو يرغب فى الخلاص من الرجل بإرغام واحد آخر على العمل معه . ومن يصلح لهذه المهمة سوى العبد لله ؟ كما قلت أنا مسمار يسدون به أى موضع فارغ فى الآلة ..

كل هذا واضح ولا مجال للتراجع .. وإلا هو العقاب المعروف ..

قلت وأنا أنهض :

ـ « حسن يا سيدى .. هذا سهل .. متى أبدأ ؟ »

ـ « اليوم لو أمكن .. إن د. (لومبان) باق معنا لمدة أسبوع لا أكثر .. بعدها يتجه إلى (ناميبيا) .. »

قال (لومبان) مفسرًا :

ـ « إن (الكاميرون) نموذج لغرب إفريقيا .. (ناميبيا) نموذج لجنوبها .. »

فهمت .. هذا نوع من المسح العشوائى يطلقون عليه (العينة العنقودية) .. لكن من الصعب أن أتصور أن هذا الرجل يعمل وحده .. هذه مهمة تقوم بها منظمة كمنظمة الصحة العالمية ، أو فريق معقد من الرجال والأجهزة ..

قال (بارتلييه) وقد خمن ما أريد السؤال عنه :

- « لا أحد يريد التعاون مع د. (لومبان) سوى (سافارى) .. لهذا يعمل وحده .. »

ضحك الرجل وقال وهو يطوح قدميه فى الهواء :

- « بمعنى آخر أنا أمثل للهيئات ما يمثله عبيط القرية .. لا أحد يصغى له أو يصدق ما يقول ، لكن وحدة (سافارى) تتمتع بسعة الخيال لحسن الحظ .. »

أكره الحكم على الناس بمظهرهم ، لكن منظره الغريب وهو يطوح بقدميه كطفل فى السابعة ، بدا لى أبعد المناظر عن الثقة .. وبصراحة لا ألوم من رفض التعاون معه ..

هكذا هززت رأسى أدعو الدكتور إلى الذهاب معى ، فوثب من فوق المقعد .. هنا فقط أمكننى أن أرى قامته القصيرة ورأسه العملاق بوضوح تام .. ولمحت ملامح الخلاص على وجه (بارتلييه) كأنما هو يقول : (هم وانزاح .. الحمد لله) ..

خرجنا من المكتب البسيط الخاص بـ (بارتلييه) متجهين إلى وحدة الكمبيوتر ..

* * *

كانت (جرترود) الزنجية المرحة جالسة هناك وأمامها كوب ورقى من القهوة ، وأمامها ورقة فيها شطيرة .. الحق يقال إننى لو صرت المدير لمنحت هذه المرأة أعلى راتب ممكن .. بشوش وتؤدى عمل عشرة رجال ، وتلعب عدة أدوار فى الآن ذاته .. مشرفة على قاعدة البيانات .. مشرفة على التقارير الطبية ، وخروج ودخول الحالات .. تعرف مفاتيح مكتبة الفيديو هنا ، والتى يتم مسح شرائطها غير المهمة كل ستة أشهر .. كل هذا وهى لا تكف عن الضحك وإطلاق الدعابات ..

هناك فتاتان محليتان تساعدانها فى إدخال البيانات ، لكنهما غير موجودتين فى كل وقت ..

قلت لها وأنا أقتحم المكان :

ـ « صباح يا (عسل) .. »

وهى طريقة الكلام المعتادة بيننا كما تعلم .. إننا نتكلم بالإنجليزية ، والطريف أننى أستعمل كل قدرتى على الاستهتار ،

وألوك الحروف كأنها قطعة لادن متظاهرًا بأننى أمريكى محترف .. هذه الطريقة تسليها وتضحكها كثيرًا ..

قالت وهى ترشف ما بقى فى الكوب :

ـ « أخيرًا رجل واحد لطيف فى هذا العالم القذر .. لكن هل تعرف أمك أنك خرجت يا صغير ؟ »

ثم توقفت لأنها فوجئت بالدكتور (لومبان) .. لذا أظهرت بعض الوقار وأصغت إلى طلبى بطريقة رسمية ..

قلت لها وأنا أحاول ألا أنفجر ضحكًا :

ـ « أريد مسحًا للحالات التى تم تشخيصها كقرحة قارضة أو سرطان أسود ، أو عتامة بعدسة العين خلال ثلاثة الأعوام الماضية .. »

هنا صاح (لومبان) محتجًا ففهمت أنه يتكلم الإنجليزية ويفهمها :

ـ « ليس القرحة القارضة .. أريد سرطان الخلايا القاعدية .. »

هنا فهمت أنه ليس طبيبًا .. أى طبيب يعرف أنهما نفس الشىء تقريبًا .. فقط تتكون قرحة فى جسم السرطان وتأكل ما تحتها ، ولما كانت هذه القرحة تفضل الوجه .. بالذات

ذلك المثلث الذى يتضمن العينينِ والأنف ، فإن بوسعنا أن نتصور أن المشهد لا يكون جميلاً على الإطلاق .. كأن فأرًا مسعورًا يتسلى بقرض الأنف والعينين .. وهذا هو سر الاسم المخيف (القرحة القارضة Rodent ulcer) ..

على أن هذا السرطان يفضل طبقة الخلايا القاعدية فى جلد الوجه ، وهو من أنواع السرطانات (الموضعية) الفريدة .. التى لا تنتشر إلا فى مكانها ، ما لم تحدث ظروف خاصة جدًا ليس هنا مجال ذكرها ..

الخلاصة : ليس (لومبان) هذا طبيبًا .. ففى أى شىء هو (دكتور) ؟

قلت له باسمًا :

ـ « نحن نناقش الشىء ذاته .. لكن ما مجال الدكتوراه التى حصلت عليها ؟ »

قال فى كبرياء :

ـ « أنا مختص بالطبيعة الجوية .. »

نظرت له فى دهشة .. لا أعتقد أننى قابلت مختصين كثيرين فى الطبيعة الجوية ، ولم أعرف أنهم يبدون كهذا .. وحتى

لو قابلت أحدهم فمن الغريب أن يكون مهتمًا بسرطان الجلد .. لكن القصة غير مترابطة إذن .. ماذا يهمه من هذه الأمور ؟ يبدو أن (سافارى) فى الفترة الأخيرة تتلقى عينات من البشر عجيبة ..

كانت (جرترود) قد طرقت المفاتيح بسرعة بأصابعها السمراء الخبيرة ، والقلم فى نفس اليد التى تقرع المفاتيح ، وعلى الشاشة راحت البيانات تتوالى ...

قالت باسمة :

- « هناك الكثير فعلاً من البيانات يا (غالى) .. لو كنت تعتقد أنك ستحصل على كل شىء الآن فأنت قد اخترت الشخص الخطأ .. »

قلت لها وأنا أقرب أنفى من الشاشة :

- « ليكن .. لكنك ستتذكرين طلبى .. هه ؟ »

- « يمكنك أن تعتمد على (جرترود) العجوز المنحطة .. »

وغادرت المكان مع (لومبان) ..

بدلاً من أن أمشى معه فى الوحدة ، والكل ينظر لنا متسائلاً عن كنه هذا الشخص الغريب ، وعن سر اصطحابى له ، قررت أن الوقت قد حان كى أدعوه إلى الكافيتيريا حيث نشرب شيئًا ، وأفهم منه المزيد ...

قلت له وأنا أتخذ مقعدى :

ـ « مازلت لا أفهم علاقة هذه الأمور بمجال تخصصك .. »

ابتسم ونظر للقاعة حولنا بعينين زائغتين ، وقال :

ـ « نعم .. هذا صحيح .. خمن .. »

شعرت بغيظ يتصاعد إلى رأسى دمًا .. لو كان هذا الرجل يعطلنى كى يلعب الفوازير ، فأنا كفيل بأن ألعب به هو نفسه .. قلت له بفتور :

ـ « خمنت وفشلت .. والآن أرجو أن توجز .. »

قال وهو يتناول علبة العصير التى أحضرتها له :

ـ « طبعًا نحن نتكلم عن ثقب الأوزون هنا .. خبير بالطبيعة الجوية وسرطان جلد .. الأمر سهل .. »

قلت له فى غيظ :

ـ « لحظة من فضلك .. معلوماتى ـ وأرجو أن تصحح لى ـ هى أن ثقب الأوزون موجود فوق القطبين ، ولا دخل له بنا .. كأنك اخترت (ألاسكا) لصيد الخرتيت ، أو اخترت خط الاستواء للبحث عن طائر البطريق .. »

قال من جديد بصوته الجهورى الغليظ :

- « هـذه هـى النقطـة التـى تـروق لى فـى بلد مثـل (الكاميرون) .. »

كان غامضًا فى هذه النقطة ، ولم أرد أن أرضيه بمزيد من الأسئلة .. لهذا سألته عن شىء آخر :

- « هل تحاول إجراء عملية مسح ؟ هذا مستحيل بالنسبة لشخص واحد ، ومع كل الأعداد الهائلـة التـى يجب أن تفحصها .. معلوماتى الإحصائية هى أن هذه طريقة فاشلة للحصول على نتائج ، ولو أردت رأيى يمكنك الاستعانة بنظام Cochrane الكمبيوترى .. يمكنك الحصول على نتائج واسعة وأنت جالس فى مكتبك .. »

قال باسمًا :

- « لا أحد يريد التعاون معى .. ألم أقل لك إننى عبيط القرية ؟ »

كدت أقول له إننى موافق على هذا ثم فضلت أن أخرس .. إن حاجتى الماسة للمشاكل هذه الأيام قد تجلب لى الوبال ..

على العموم أنا أعرف ما سيقول بعد أيام من البحث المدقق :

ـ « ثقب الأوزون يتآكل يا شباب .. هذه هى الكارثة التى حلت بالتوازن البينى لكوكبنا .. سرطان الجلد يتزايد .. حرارة الكوكب ترتفع .. افعلوا شيئاً أيها الأوغاد ! »

ثم يحمل أوراقه لينصرف وينام سعيداً ، متظاهراً بأنه لا يعرف أن مئات العلماء قالوها من قبل ...

أن يقرر إنسان إعادة اكتشاف (البنسللين) بعد كل هذه الأعوام .. هذا شأنه .. لكن أن أكون مسئولاً عن مساعدته فهذا ما لا يطاق ..

ترى كم سأتحمل من وقت قبل أن أهشم أنفه وأطرد من الوحدة ؟



الدائرة الثالثة

ثقب فى قلب

1

فى الصباح لم أجد جوربًا نظيفًا .. تجاهلت هذا وبدأت ارتداء ثيابى فلاحظت أن القميص ينقص زرًا ..

كانت (برنادت) تقف أمام المرآة تمشط شعرها ، توطئه لأن تخرج معى إلى الوحدة .. كنا الآن نعيش فى تلك (الفيلا) الصغيرة التى تبعد خطوات عن وحدة (سافارى) ، لكن سيارة الوحدة كانت تمر بنا فى هذا الوقت بالضبط لتنقلنا هناك ، مع د. (سيمون مولنسار) جارتنا .. هل تذكر قصة الطبيبة التى اعتقدت أن زوجها مصاب بالإيدز فاتضح أنها من نقلته له ؟ حسن .. كانت هى جارتنا ، وكنا نعيش معها حياة طبيعية لأن الإيدز ـ كما قلت لك ـ لا ينتقل بسهولة .. فقط كنا ندعو الله ألا تتدهور قريبًا .. فقد كانت امرأة ممتازة ..

قلت فى ضيق لـ (برنادت) ، وقد تذكرت ما يقوله الرجال فى مواقف مماثلة :

ـ « (برنادت) .. هذا القميص .. الزر ليس ... »

نظرت إلى ما أتكلم عنه .. ثم طلبت منى أن أخلعه لتثبت هذا الزر .. فقلت فى عصبية :

ـ « لا وقت لهذا .. لكن كان من واجبك أن تثبتى الزر .. »

قالت وهى تواصل تمشيط شعرها ، وتضع المعطف على كتفيها :

ـ « لم أعرف هذا .. أنت بنفسك لاحظته الآن للمرة الأولى .. ثم إنك كنت عزبًا وتعرف كيف تثبت زرًا .. »

وضعت رأسى جوار رأسها فى المرآة ، وقمت بتهذيب لحيتى بالمشط ، وقلت :

ـ « حينما يتزوج الرجل فإنه يعهد بهذه الأمور لزوجته .. لا أستطيع أن أتذكر عدد جواربى أو عدد أزرار قميصى .. ظننت أن هناك عقلاً أكثر دقة وترتيبًا يتابع هذه التفاصيل »

ـ « جميل .. لكنك تعرف أننى أعود إلى البيت بعدك وأغادره معك .. ثم إن الحمل ... »

فى الحقيقة لم أعرف موضع الخلاف .. فعلاً ما كان بوسعها أن تعرف .. لو طلبت منها ولم تفعل فلربما كان من حقى أن أحتج ، أما والأمر كذا فأنا أشعر بأننى أتحرش بها ..

وهذا جزء من بحثى الدءوب عن مشاجرة هذه الأيام .. لذا قلت لها وأنا أرتدى المعطف الأبيض على خلفية من صوت هدير محرك السيارة بالخارج :

- « هيا بنا .. لقد وصلت السيارة .. »

★ ★ ★

كنت متجهًا إلى قسم الجراحة .. لم يظهر (لومبان) بعد وأحسبه من الذين لا يصحون قبل العاشرة ؛ لذا قررت أن أبدأ يومى .. هو يعرف أين يجدنى لأنى أخبرته أمس ..

دخلت وسط زحام الأطباء المنهمكين فى ارتداء ثياب الجراحة .. البعض يقف أمام المرآة يحكم تثبيت القناع ، والبعض بدأ خطوات التعقيم ..

اصطدمت بطبيب تخدير فرنسى لا أذكر اسمه ؛ لهذا كلما قابلته استعملت ضمير المخاطبة فقط .. هذا يشبه ما أفعله فى مصر عندما أستعمل (بيه) و (باشا) مع كل من أعرفه جيدًا لكنى لا أذكر من هو حقًا .. واضح أن هذا الطبيب الفرنسى صديق حميم لى و (بسام) ، لكنى فى كل مرة أخجل من سؤاله عن اسمه أو أنسى ذلك ..

عرفت شخصًا كهذا فى مصر ، وكنت أتحاشى أية مواقف محرجة بأن أبدأ بالهجوم :

ـ « لقد نسيت ما طلبته منك ! ليكن ! هذا ما توقعته ! »

فيرتبك ويروح يحاول تذكر ما هذا الذى طلبتـه .. عندها أتركـه وقد رسمت على وجهى ابتسامة تجمع بين اللـوم وخيبة الأمل والتهذيب .. هكذا لا يجد أبدًا فرصة لتطويل الحوار ؛ ليدرك أننى لا أعرف اسمه !

قال لى الفرنسى الذى لا أذكر اسمه :

ـ « هل رأيت (بسام) اليوم ؟ »

كانت هذه اللهجة تثير هلعى .. معنى هذا أن ...

قلت فى توتر :

ـ « ماذا ؟ مشكلة جديدة ؟ »

هز رأسه موافقًا :

ـ « تفاقمت تلك الضربات الزائدة صباح اليوم .. وقد قرر أن يذهب إلى قسم القلب .. »

الآن فقط عرفت أن الأمر خطير .. (بسام) صديقى التونسى طبيب لكنه لا يطيق الأطبـاء ، ويؤمن أنهم يتربصون بـه ، وهو شعور طفولى طبيعى يشعر به كل منا حين ينظر طبيب الأسنان فى فمه صائحًا بانتصار : آهههه !

لهذا لم يستشر (بسام) أحدًا بصدد نوبات الضربات الزائدة التى تلاحقه منذ أسبوعين . أعرف أن هذه الضربات على الأرجح ناجمة عن توتره أو إفراطه فى شرب القهوة ، لكن ما دام قد طلب رأى الطب فالأمر جد خطير ..

هكذا شققت طريقى فى الزحام ، حتى وجدت الجراح الذى سأقوم بمساعدته اليوم ، وطلبت منه أن يعفينى بعض الوقت .. كان منهمكًا ، فهز رأسه أن نعم وهو يواصل شرح تقنية الجراحة القادمة لطبيبين آخرين ..

خرجت من القسم ، واتجهت إلى قسم القلب ..

لم يطل بحثى ، فقد كان راقدًا على سرير الفحص ، وقد وقف جواره طبيبان وممرضة فلبينية .. واستطعت أن أدرك أن صدره عار وقد ثبتت عليه تلك الأقطاب المخيفة ..

وعلى شاشة المرقاب (مونيتور) رأيت تلك الموجات المميزة لسريان الكهرباء فى جدار قلبه ..

حقًا هناك ضربات زائدة عديدة .. لكن ـ على قدر علمى ـ لا يوجد شىء آخر غير عادى ..

قال مختص القلب ، وهو طبيب ألمانى يدعى (شميت) .. أو شيئًا على هذا الغرار :

- « ضربات زائدة أذينية .. لن يختلف تخطيط قلبك عن هذا لو شربت قدحين من القهوة .. »

كان الأمر واضحًا فلم أر ما يدعو للقلق ..

قلت لـ (بسام) وأنا أربت على ساعده البارد كالثلج :

- « لاتقلق .. إن الأوغاد لاينالون الموت بهذه السهولة . »

لكنه كان متعكر المزاج وفى حالة لاتسمح بالمزاح .. قال فى عصبية :

- « هذه هى النوبة الخامسة هذا الأسبوع .. هناك كارثة ما .. »

قلت باسمًا :

- « لا بد أنك تذكرت (حبيبة) .. »

لم يعلق .. وهذا أشعرنى بأننى سخيف ..

هناك قصة شهيرة عن (ابن سينا) حين استدعوه لعيادة شاب يعانى الضربات الزائدة .. رأى النطاسى البارع حالة الشاب .. فطلب من يتلو على الشاب أسماء قبائل العرب كلها .. راحوا يتلون بينما (ابن سينا) يضع أنامله على النبض .. تسارعت ضربات القلب عند اسم قبيلة معينة ..

الآن طلب الطبيب أن تتلى أسماء كل فتيات هذه القبيلة على الشاب ، ووضع يده على النبض .. تسارعت ضربات القلب عند اسم فتاة معينة .. هنا أعلن (ابن سينا) أن الفتى عاشق ، ودواءه الوحيد أن يتزوج هذه الفتاة .. وقد كان ..

(حبيبة) هى خطيبة (بسام) التى تنتظره فى الوطن .. ذكرونى فيما بعد أن أعرف لماذا تسمى كل فتاة تونسية على وزن (فعيلة) .. لكن الوقت غير مناسب الآن ..

كم حكى لى عن يوم ارتدى العباءة التونسية الأنيقة وذهب لبيتها ليقول لأبيها العبارة التقليدية هناك : جيتك خاطب راغب فى بنت الحسب والنسب ..

فقط ليقول أبوها فى وقار : كى نكتب ..

أى أنه موافق .. والحقيقة أن الفتى كان يحبها فعلاً ..

سألت الطبيب الألمانى وقد عدت لاستعمال الفرنسية :

- « هل يتعاطى عقارًا منظمًا للضربات ؟ »

هز رأسه أن لا داعى لهذا ، وأضاف :

- « أعتقد أن الامتناع عن القهوة والتبغ سيحسنان الوضع ..

لا بأس بمهدئ خفيف .. أما ما لا أفهمه فعلاً فهو أن هناك ارتفاعًا فى درجة حرارته .. »

كان (بسام) قد بدأ يدخن منذ فترة ، وهذا على سبيل عقاب الذات .. كلما افتقد الوطن أكثر كلما قرر أن يعاقب نفسه .. أنا لم أر (تونس) لكن قياسًا على شوقه المحموم لها ، فلابد أنها جنة الله فى أرضه ..

لكن حرارته مرتفعة برغم برودة أطرافه ؟ هذا جزء لا أفهمه .. إن الزكام يحدث أحيانًا .. ملت وسألته :

ـ « هل تشكو من أية أعراض أخرى ؟ هل كنت سليمًا فى الفترة السابقة ؟ »

تذكر قليلاً ، ثم قال :

ـ « خلعت ضرسًا منذ فترة .. هل هذا كاف ؟ »

طبعًا غير كاف .. خلع الضروس لايسبب اختلال الضربات وارتفاع الحرارة بأثر متأخر ..

ظل (بسام) راقدًا يلهث وينظر للمرقاب .. وقدرت أنه يريد أن يمرض .. يتمنى أن يمرض قليلاً .. هذه حاجة إنسانية طبيعية نشعر بها من وقت لآخر .. إما لكسر روتين الحياة ، وإما لننال بعض الاهتمام .. أهم شىء فى هذا الاحتياج أننا نفضل أن يتم بلا أطباء ..

احترمت هذه الرغبة وجلست معه بعض الوقت ، حتى قرر أن ينهض ..

كنت أمشى بجواره متجهين إلى مسكن الأطباء ، حيث سمح له أن يستريح بقية اليوم ، عندما رأيت د. (باركر) البريطانى نائب المدير قادمًا .. (باركر) الذى إن لم يكن يتسلى بشى القطط فى فرن بيته ؛ لكان فهمى للبشر خاطئًا ..

قلت لنفسى : يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم .. كنت أريد مشاجرة ، وها هى ذى قد جاءت تتبختر .. متأنقة تضع يديها فى جيب المعطف ، وتتكلم إنجليزية راقية .. لقد أراد هذا الرجل ما سيحدث ، وعلى الباغى تدور الدوائر . فى دور السينما التى كنت أدخلها فى (شبرا) ، كان (بروس لى) يصرخ دائمًا فى منتصف كل فيلم قائلاً : لقد أردتم القتال فأنا له .. ثم يطير فى الهواء ليحطم عدة جماجم ويفتح عدة بطون .. فنهلل له فى الصالة .. لا ننس أننا كنا ـ باعتبارنا نموذجًا للطبقة الوسطى ـ أغنى من أن ندخل (الترسو) وأفقر من أن ندخل (البلكون) ..

على عكس ما توقعت ، قال (باركر) وهو يرمق (بسام) باهتمام :

ـ « أرجو أن يكون صديقنا العربى بخير .. »

قلت بسماجة وأنا أفتح باب غرفة الفتى :

- « سيعيش .. »

وسألت (بسام) وأنا أزيح له ملاءة الفراش جانبًا :

- « هل تريدنى معك ؟ »

نظر فى توتر إلى (باركر) الواقف كغراب البين على الباب ، وقال:

- « لا .. شكرًا .. اذهب لترى ما يريد .. »

قالها كأنه يقول : أبعد هذا الشيطان عنى ، فهو يزيد حالتى سوءًا ...

لكن ليس قبل أن أنزع عنه المعطف والحذاء .. ما المشكلة فى أن أنزع حذاءه ؟ إنه أخى .. وأنا مستعد لفعل أى شىء ما دمت لست مجبرًا عليه ..

هكذا أغلقت الباب وعدت لـ (باركر) متوقعًا كارثة ..

قال لى وهو يمسك بذراعى ، فى إيماءة لم أعتدها قط .. حتى شعرت بأن أفعى تلتف على معصمى :

- « إن ذلك الدكتور الفرنسى يبحث عنك .. أتكلم عن (لومبان) .. »

- « سأذهب إليه .. »

استوقفنى متمهلاً وقال :

- « ما رأيك فيه ؟ شخص غريب الأطوار .. أليس كذلك ؟ »

هززت رأسى بما معناه (نعم) أو (بلى) .. لا يمكنك استخلاص شىء .. مع (باركر) أنت تتعامل كما يتعامل المجرم مع ضابط المباحث .. لا تعطه إجابات يستعملها ضدك فيما بعد ..

أردف وهو يجرنى معه جرًا :

- « إن الرجل العجوز لا يتصرف بحنكة .. إنه طيب القلب ، ولا يرفض طلبًا لأحد .. لهذا ينبغى على المرء أن يكون حذرًا .. أنت تفهم ما أريد قوله .. أكثر مشاكل هذه الوحدة تقع على عاتقى فى النهاية .. هذا هو الوضع الكئيب لـ (الأخ الأكبر) الذى يرى ويعرف كل شىء .. قد يمقته البعض لكنهم لا يتصورون كم هو ضرورى .. والآن أنا أرى أن ذلك العجوز يجازف باسم الصداقة .. إنه يسمح لهذا الفرنسى المجهول بأن يأتى هنا .. يجمع بيانات .. يتغلغل فى كل شىء .. ثم يصدر نتائج تحمل اسمنا .. أنا أمقت هذا .. »

قلت له وأنا لا أفهم كل هذه المقدمات :

ـ « لم لا تمنع التعاون معه رسميًا ؟ »

ـ « لن أصطدم بالمدير بهذا الشكل .. لكني أثق في عقليتك المتفهمة لهذه الأمور .. وما أطلبه ليس عسيرًا .. أريد تقريرًا كاملاً عن المعلومات التي جمعها هذا الرجل ، وماذا يستخلص منها .. أريد معرفة أين يذهب وماذا يفعل .. سيكون هذا سهلاً عليك لأنك مكلف رسميًا بأن تكون ظله .. »

توقفت وألصقت ظهري بالجدار وقلت :

ـ « سيدي .. هل لغتي الإنجليزية قد ترهلت ، أم أنني أفهم أنك تطالبني بالتجسس على الرجل ؟ »

قال في عصبية :

ـ « لا تخلط الأوراق .. إن لغتك الإنجليزية بالسوء الذي تعتقده فعلاً .. ما أطلبه ليس تجسسًا .. يجب على القياديين أن يكونوا على علم بما يدور تحت أنوفهم .. »

كنت أعرف أن هذا يتم من دون علم (بارتلييه) ، لهذا قررت أن ألعب اللعبة ببراعة .. قلت :

ـ « ليكن .. سأقدم تقريرًا للبروفيسور (بارتلييه) .. »

قال فى غيظ :

- « إذن أنت لم تفهم كل ما قلته لك .. التقارير ستقدم لى أنا .. هل هذا صعب ؟ »

- « لا أستطيع يا سيدى .. تعاملى مع جهة واحدة هى البروفيسور (بارتلييه) .. »

أخذ نفسًا عميقًا .. بالطبع كان يريد تحطيم وجهى ، لكنه لا يستطيع ذلك الآن .. قال فى صبر :

- « إن قبولك سينعكس على وضعك هنا .. وأنا أعرف ما أقول .. أحب أن أثق فيمن يعمل معى ، وأنت تعرف أن أداءك ملىء بالأخطاء التى يمكن أن أكتشفها .. فكر فى هذا .. »

طبعًا كان محقًا .. لو أراد أن يتحرش بى - وهو قادر على ذلك - لوجد ملايين الفرص .. بدءًا بأزرار المعطف غير المزررة جيدًا وانتهاءً بتأخير ثلاث دقائق عن موعد نوبتجية ما .. ولن يستطيع (بارتلييه) حمايتى ..

قلت له لأنهى الموقف :

- « سأفكر فى هذا يا سيدى .. »

وابتعدت قبل أن يرد ...

* * *

ما معنى هذا ؟ هل هو مجرد تدخل فيما لا يعنيه أم أن الأمر مهم بحق ؟

ماذا يعنيه من هذا الرجل البائس الذى يعتبر نفسه (عبيط القرية) ؟

على كل حال لم ألق (لومبان) ثانية لأننى انشغلت ببعض الأعمال .. كانوا يحتاجون إلى من يساعد فى عيادة الأمراض العصبية ؛ فطلبونى .. وهكذا ذهبت هناك .. وقضيت عدة ساعات تعسة ..

قرب العصر قابلت طبيبًا آخر قال لى بتلك اللهجة التى تدل على كارثة :

ـ « صديقك التونسى .. (بسام) .. لقد عاد إلى العناية المركزة .. »

ـ « متى وكيف ؟ »

ـ « النوبات عاودته .. منذ ساعة تقريبًا .. كان يقف هنا ثم تحسس صدره وسقط على الأرض ، فحملناه حملاً إلى هناك .. لا أعرف ما يحدث لكنهم قلقون .. »

ماذا ؟ هذا كثير ! مرتان فى يوم واحد !

توجهت إلى هناك فلم أجده .. كانوا قد نقلوه إلى الغرفة الجانبية التى يجرون فيها فحص الموجات فوق الصوتية Echocardiography .. طبعًا عندما يتكرر الأمر يغدو من الواجب إجراء المزيد من الفحوصات ..

بالفعل دخلت الغرفة الضيقة فوجدت علامات الوجوم على الوجوه .. وعلى الشاشة تلك الخطوط التى لن أفهمها ولو بعد مليون سنة ، لكن تعبيرات وجوههم تقول إن الأمر جد خطير ...

كان (بسام) على فراش الفحص ، والطبيب الألمانى إياه يمرر مسبر الجهاز المغموس بالجل Gel على صدره ..

لم ينتظر (بسام) حتى أعرف ما هنالك .. إنما صاح فى رعب :

ـ « (علاء) .. ثمة ثقب بين البطينين ! كنت أتوقع كارثة ، وقد وجدتها ! »

* * *

الدائرة الرابعة

ثقب في جيب

1

عدت إلى مسكننا .. تلك الفيلا الصغيرة التى صارت بيتنا .. لا أعرف إلى متى ..

لقد جعلناها رحبة جميلة .. الأزهار في كل مكان .. الباب مطلى بطلاء هو خليط من البنفسجى والأرجوانى .. يبدو أن له اسمًا نسائيًا من تلك الأسماء التى لا تتذكرها أبدًا .. (سيمون) ؟ لا .. سأتذكره حالاً ..

الأثاث فى الداخل مريح .. ليس فاخرًا لكنه مريح ، مع مسحة تذكرك بغرف الأطفال .. إن (برنادت) تجيد هذه الأمور ، ولو أعطيتها خرقة قماش وصرصورًا ميتًا وعلبة ورنيش أحذية ، لصنعت لك مكتبة جدارية تبهر لها أنفاسك ..

المهم أننى دخلت ولم تكن (برنادت) قد عادت بعد .. إن عملها لن ينتهى قبل الخامسة مساء ..

فى المطبخ كان العشاء معدًّا .. مكرونة فى مصفاتها ،

وصلصة فى إناء جاهز للتسخين .. هناك قطع من الدجاج المخلى تنتظر فى طبق ملىء بالبقسماط .. كل ما علىّ هو تسخين الصلصة وسكبها على المكرونة ، ثم إلقاء قطع الدجاج فى الزيت .. هذا لو كنت جائعًا جدًا لا أطيق انتظارها .. جائعًا جدًا أو قاسيًا لا يبالى بشىء .. هذا اتفاق ضمنى بيننا ..

لكنى بالفعل كنت غير قادر على الانتظار .. كان توترى بسبب (بسام) قد أورثنى تقلصًا فى فم المعدة أقرب إلى الجوع ، وقدرت أن الأكل سيريحنى .. (بسام) الآن نائم بفعل حقنة مهدئة وقد انتظمت ضربات قلبه ، فلن أفيده بشىء لو مت من التعب جواره ..

هنا سمعت صوت شىء يتدحرج على الأرض ..

كانت مجموعة من العملات المعدنية قد سقطت من الجيب ، وتدحرج بعضها أرضًا بينما فضل بعضها أن يستقر ما بين الحذاء والجورب ..

مسحت يدى الملوثة بالصلصة فى منشفة الوجه ، ثم مددتها فى جيبى .. لأشعر بجانب من فخذى تحت أصابعى مباشرة لا تفصلنى عنه بطانة الجيب .. هذا جيب ممزق مهترئ ..

ليكن .. خلعت البنطال وارتديت بنطال منامتى ، ثم رحت أواصل إعداد وجبتى ، وجلست على المنضدة الصغيرة فى المطبخ ألتهم بسرعة وبلا تلذذ ..

سمعت الباب ينفتح ، ثم ظهرت (برنادت) .. كانت مرهقة شاحبة ومن الواضح أن يومها لم يكن أفضل يوم ..

هززت رأسى أحييها .. ثم واصلت الأكل .. أعتقد أننى بعد هذا سأكتب خطابًا أو اثنين ، ثم أغفو بعض الوقت .. فى المساء أذهب لأطمئن على (بسام) وليذهب الفرنسى (لومبان) إلى الجحيم .. إنه يعرف مكان قسم الحاسب الآلى .. فليذهب هناك وحده فهو لم يعد طفلاً ..

تأخرت (برنادت) فى الحمام قليلاً ، ثم سمعت صوت الصنبور ..

قالت والصوت يقول إنها تغسل وجهها :

ـ « قد كان يومًا عسيرًا .. أنا ميتة من الـ .. »

ثم توقفت .. بعد دقيقة عادت لى ملوحة بمنشفة الوجه ، وقالت :

ـ « لماذا مسحت فيها الصلصة ؟ »

قلت وأنا أغرس الشوكة فى المكرونة :

- « لم أجد شيئاً آخر أمسح يدى فيه .. لم تحدث كارثة .. هاتى منشفة أخرى .. »

مطت شفتها السفلى فى ضيق ، وقالت :

- « منشفة أخرى .. هذا سهل بالنسبة لك .. إن هذا البيت يحتاج إلى ألف منشفة يومياً .. »

ثم كومت المنشفة وألقتها فى الركن ، حيث ستنتقل إلى سلة الغسيل ..

قلت لها وأنا أواصل الأكل :

- « ثمة ثقب فى جيب بنطالى .. أرجو أن ترتقيه لى .. »

هزت رأسها أن نعم ، ثم بدأت تعد لنفسها بعض الطعام ..

جلست أمامى على المائدة ، ثم رفعت قطعة من الدجاج بالشوكة وقالت باسمة :

- « (علاء) أيها العزيز .. نحن نستعمل مقلاة لا محرقة جثث .. ما فعلته أنت هو أن حولتها إلى قطعة فحم .. »

هنا فاض بى .. لا أحب نغمة التحرش هذه .. قلت فى ضيق :

- « هل يوجد شىء واحد فعلته اليوم لا يندرج تحت خانة الخطأ الشنيع ؟ »

هنا استبد بها الغضب بدورها ؛ فقالت :

ـ « لسبب بسيط .. هو أن ما تفعله كله يندرج تحت هذه الخانة .. »

ـ « ليكن أيتها العزيزة .. ليكن واضحًا أن يومى كان سيئاً .. (بسام) مريض وتشاجرت مع (باركر) ولدى طن من الأعمال المعلقة ، فلو أضفنا إلى هذا عدة ساعات فى عيادة الأمراض العصبية ، لوجدت أننى لست مؤهلاً للعب دور (جيمس بوند) الذى لايخطئ ولا يتعب ، أو العاشق الأبدى الذى يلقى بمعطفه فى الوحل كى تمشى فوقه أميرة أحلامه ، فلاتتسخ قدماها المقدستان .. »

ـ « لم أطلب معاطف فى الوحل لأن غسيلها سيكون مسئوليتى فى النهاية .. ولكن هل تعتقد أن يومى كان نزهة ؟ »

ـ « نحن متعادلان ، لكنى لا أقضى الوقت فى انتقاد تصرفاتك .. »

هكذا تصاعد الإيقاع الغاضب .. كلمة بكلمة ، حتى بدا لى أننا نتسلق جبلاً يحاول كل منا أن يبلغ قمته قبل الآخر .. تصاعد هارمونى على طريقة الكريشندو **Crescendo** الموسيقية الشهيرة حتى نصل درجة الصراخ ...

لو أن الموسيقار (سليم سحاب) سمع هذا الأداء المعجز لضمنا فى حماس إلى فريق الكورال الخاص به ..

ونهضت .. لم أعد أريد أن أواصل الطعام ..

لا أعرف .. ثمة حاجز ينشأ بيننا من حين لآخر ، ويجعل من الصعب أن أريها ما أحمله لها بالفعل .. أحبها وأشفق عليها مما هى فيه من (وهن على وهن) .. لكن تصاعد الأحداث يجعل أى اعتراف من هذا النوع مهينًا ..

بعد قليل دخلت الفراش وحاولت أن أنام ..

يبدو أن لعنة الزواج أبدية ، كلما ظن عاشقان أنهما أذكى أو أفضل حظًا من الآخرين اتضح أنهما أحمقان .. لابد من خلاف فى الرأى يتصاعد إلى شجار .. لابد من أن تخرج الضغوط اليومية بخارها حين تنفرد برفيق حياتك .. فقط لتكتشف فى أسى أنه لن يقبل منك ما لم يقبله الآخرون ...

وهنا ينشأ ثقب فى العلاقة .. يتسع ...

حقًا إن الإنسان مسكين .. تتشاجر مع رئيسك فى العمل فتفصل .. تتشاجر مع مار فى الشارع فيحطم أنفك .. تتشاجر مع هيئة حكومية فتسجن .. عندها تشعر بحاجة إلى أن تخرج بعض عصبيتك فى دارك بعيدًا عن العيون ، لكنك تصطدم بشريك حياة غير مستعد لسماع شىء .. عرفت صديقًا لى كان يقود سيارته بأقصى سرعة لها فى طريق مهجور ، ويخرج رأسه من النافذة ويصرخ ويسب بأعلى صوته .. كان هذا يريحه ، وأظننى أفهمه ..

* * *

- « لاشيء مثل (الروك أند رول) ليسد ذلك الثقب في روحك ! » .. أغنيـة قديمة لفرقـة (آبا Abba) السويدية .. تذكرتها فابتسمت .. لو كانت الحياة بهذه السهولة لكنا سعداء الحظ فعلاً ..

- « لاشيء مثل (الروك أند رول) ليسد ذلك الثقب في روحك ! » .. يكفى أن أبتاع شريطًا راقصًا للإيقاع (روك أند رول) لتنتهى مشاكلى !

★ ★ ★

نمت ساعتين وصحوت متعبًا ..

كانت (برنادت) جالسة أمام التلفزيون لاتراه .. عينان زائغتان تشاهدان التلفزيون الداخلى فى أعماقها .. جالسة وقدماها على مسند أمامها بحيث صارت كأنها نائمة فى فراشها .. وهو وضع لم يبد لى مريحًا على الإطلاق ..

بدأت ارتداء ثيابى من جديد .. هنا تنبهت إلى بضعة أشياء ..

لاجوارب كالعادة .. الزر الناقص لم يعد لمكانه ..

قلت لها وأنا أشرب جرعة من الماء :

- « (برنادت) .. طلبت منك أشياء تعتبر تافهة .. لكنها جميعًا لم تنفذ .. »

قالت وهى تواصل النظر فى الشاشة :

ـ « لاحظ أننى وصلت منذ ساعتين ونصف .. لديك قمصان أخرى وجورب لا بأس به .. اترك لى كل شىء ولسوف أعنى به .. »

هنا تذكرت شيئًا آخر :

ـ « الثقب فى جيب البنطال .. كنت أنوى الخروج به .. هل أصلحته ؟؟ »

ابتسمت ونظرت لى طويلاً ، وقالت :

ـ « نفس الإجابة .. »

هنا انفجر غيظى ..

الآن بدأت أتكلم وأنتم تعرفوننى حين أقرر أن أتكلم ..

حدثتها عن استهتار المرأة الغربية ، وعدم شعورها بقيم البيت .. أمى كانت ستنتحر فورًا لو ظل زر قميص أبى ناقصًا لفترة تتجاوز الساعة .. بل ربما انتحرت لو أن أبى طلب الشىء قبل أن تلاحظه هى .. أبى لم يكن يعرف عدد جواربه أو شكلها ، لكن أمى كانت تعرف تاريخ كل جورب .. من أين اشتريناه ومتى رتقته ومتى غسلته .. أمى لم تكن طبيبة

ولم تكن تتحدث اللاتينية والفرنسية ، لكنها عرفت كيف تصنع أسرة سعيدة متماسكة .. أبى لم يكن طاغية لكنه لم يطلب قط ذات الطلب مرتين .. قلت لها إن الرجل يعيش من أجل عمله ، بينما المرأة تعيش من أجل بيتها ، وأية محاولة لتبديل الأوضاع كفيلة بخراب (مالطة) ..

قلت لها كلامًا كثيرًا ، وكنت سأهشم رأسها لو بدأت تصفنى بالشرقى المتخلف أو تتهمنى بالميسوجينية Misogyny أو معاداة المرأة .. والتهمة الأخيرة صارت مثل معاداة السامية تلاحقنى حيثما ذهبت ..

لكنى أشهد لها أنها ظلت صامتة تصغى ولا تتكلم .. فقط تنظر إلى شاشة التلفزيون .. هذا امتص غضبى إلى حد ما ..

لكنى قبل أن أنصرف قلت لها :

- « لو لم أجد ثقب الجيب وقد تم رتقه لدى عودتى ، فلسوف أستنتج أن هذا سلوك متعمد .. »

وكنت أعرف أننى ضغطت الزر السحرى للتحدى لديها ..

لن ترتق الثقب .. هذا يقين لدى ..

كنت أريد مشاجرة ويبدو أننى سأظفر بها أخيرًا .. كم أن هذا جميل ..

سوف يتصاعد صراخى إلى حد أنه سـيزعج (بارتلييـه) فى مكتبه ، ولسوف يأتى أطباء (سافارى) كى يهدئـوا من روعى ..

كم أن هذا رائع .. وكم أنا فى حاجة إليه !

★ ★ ★

الدائرة الرابعة

ثقب فى جيب

2

- « لاشىء مثل (الروك أند رول) ليسد ذلك الثقب فى روحك ! »

* * *

الظلام قد حل وأنا أمشى فى طريقى إلى وحدة (سافارى) التى تلمع أنوارها هناك ...

كنت أتساءل : هل ما نحن فيه وقتى ؟ هل سيزول سريعًا ؟ كم من مشاجرات مرت بنا وذابت بلا أثر .. كانت أمى تقول دومًا : حتى الأمعاء تتشاجر فى بطنك .. فكيف لا يتشاجر زوجان ؟

لكنى كنت فى كل مرة أشعر بضيق شديد ، مع رغبة عارمة فى عدم التراجع .. إن الحياة معقدة بما يكفى فلماذا نجعلها أعقد ؟ أقول هذا لنفسى قبل أن أقوله لـ (برنادت) ...

دخلت وحدة (سافارى) فتبادلت تحية هز الرأس مع رجال

الأمن الأفارقة الذين يجوبون المكان .. ثم اتجهت إلى العناية المركزة .. الوحدة خالية تقريبًا الآن فلا تلقى إلا تعساء الحظ النوبتجيين أو بعض المرضى .. طبعًا غرفة المدير مضاءة كالعادة .. تعودت عينى رؤية الضوء عبر الستائر (الفينيقية) التى تغطيها ، وصرت أعرف متى يكون الرجل فى مكتبه بالضبط ..

هل أخبره عن محادثتى مع (باركر) ؟

لا أظن .. لم يحدث فيها شىء جدى ، ولا أحسبها تستحق وقفة ..

الآن أدخل العناية المركزة فلا أجد (بسام) فى فراشه .. لست ميالاً إلى كونه مات لأن الأمور ليست بهذا السوء ..

قالت لى الممرضة التى تراجع دفاتر الدواء إنه شعر بتحسن فانصرف ..

أين ذهب الفتى إذن ؟ أعرف أنه يموت قلقًا .. هو من الطراز الذى يموت من خشية المرض قبل أن يقتله ذات المرض .. لكن أين ذهب ؟

مشيت فى الطرقات قاصدًا مسكن الأطباء مصغيًا لصوت خطواتى على الأرضية ..

قرعت باب غرفته عدة مرات فلم يكن أحد بالداخل ..

هكذا وقفت على الباب أحك رأسى .. إلى أين أذهب وأين يمكن أن أجده ؟

فى الحقيقة لست راغبًا فى البقاء فى البيت .. كما أننى لست راغبًا على الإطلاق فى قضاء ليلتى هنا .

لكن الأمر واضح الآن .. لن أجده .. لقد أرضيت ضميرى ..

هكذا رحت أجوب طرقات (سافارى) مضيعًا أكبر قدر من الوقت ..

هنا وجدت نفسى أقف أمام (باركر) !

★ ★ ★

لو أننى قابلت مذءوبًا لما بدا لى الأمر منفرًا إلى هذا الحد ..

كان يرمقنى بنظرة نارية ويداه فى جيب معطفه ..

بحثت عن خطأ ما فلم أجد .. لاحظ أننى لست نوبتجيًا ..

قال لى فى هدوء :

ـ « هل تريد شيئًا ؟ هل أنت طبيب هنا ؟ »

واضح طبعًا أنه يتحرش بى ، فقلت فى برود :

ـ « أعتقد هذا .. »

قال باشمنزاز :

- « أنا لا أرى طبيبًا أمامى .. أنت لا ترتدى معطفًا .. »

تذكرت هذا الآن فقط .. لكن الإجابة سهلة :

- « ليس لدى عمل حاليًا هنا .. »

قال ببرود :

- « إما أن تكون طبيبًا فتكون مطالبًا بارتداء المعطف .. وإما أن تكون متسللاً لا أعرف كيف سمح لك رجال الأمن بالدخول .. »

- « ربما مريض كذلك .. »

قال وهو يدون أشياء فى مفكرته التى لا يتركها ، والتى تحمل قائمة بألوان الإيذاء التى ينوى أن ينزلها على الرءوس غدًا :

- « حسن .. أعتقد أنه ستكون لنا كلمتان غدًا بهذا الصدد .. »

- « حقًا ؟ شكرًا يا سيدى .. أشكرك على تفهمك .. »

وانصرفت قبل أن يقول كلمة أخرى ، كنت أعرف أنه سيبدأ عهدًا من الإرهاب .. هذا هو اليوم الأول من عملية ملاحقته لى ..

لم يكن أمامى سوى خيار واحد هو أن أتجه إلى مكتب (بارتلييه) العزيز ..

ـ « مساء الخير يا (علاء) .. هل من عمل لهذه الليلة ؟ »

لم يلحظ قط أننى لا أرتدى المعطف الأبيض .. فجلست ، وأخذت شهيقًا عميقًا وانتظرت حتى انتهى من الكتابة ورفع لى عينًا متسائلة .. قلت :

ـ « سيدى .. أرغب رسميًا حمايتى من د. (باركر) .. »

نظر لى فى دهشة ، وقال :

ـ « حمايتك ؟ عم تتكلم بالضبط ؟ »

ـ « أعتقد أنه يتحرش بى لأننى رفضت طلبًا له .. »

وحكيت له القصة كاملة ، وهو يسمعها فى غير فهم .. تحول إلى دهشة حقيقية .. فى النهاية قال لى :

ـ « وماذا يهم (باركر) فى أبحاث (لومبان) ؟ »

ـ « لا أعرف .. أعتقد أنه الأقدر على الرد .. »

فكر قليلاً ثم مد يده إلى الدرج فأخرج قالبين من الشيكولاتة وناولنى واحدًا ، وقشر الآخر لنفسه ، وقال :

- « إن (لومبان) غريب الأطوار .. ينقب عن أشياء غريبة جدًا ، ولو لم يأت بتوصية من الملحق الصحى الفرنسى لما أوليته اهتمامًا .. الآن أجد أن (باركر) مهتم بدوره .. »

- « ويحاول أن يفعلها دون علمك »

طبعًا لم أترك فرصة من أجل (دق الإسفين) المرجو بينه وبين (باركر) ، لكنه كان حريصًا على ألا يصطدم بمساعده الشرس .. فقط قال لى وهو يكور ورقة الشيكولاتة :

- « سأفهم التفاصيل .. لكن حتى ذلك الحين أرجو ألا ترتكب أخطاء .. هو سيلاحق أخطاءك الواضحة التى لايمكن تبريرها ، ولسوف يضعنى هذا فى موقف حرج .. لن أستطيع حمايتك .. »

كنت أعرف أن هذا سيكون رده ، لكن لابد من عمل هذا ..

وكنت متأكدًا من شىء آخر .. هو لن يذكر حرفًا من هذه المحادثة لـ (باركر) .. لكنى على الأقل زرعت فى نفسه شكًا تجاه أى شىء يقوله (باركر) عنى .. ولو جاءه (باركر) غدًا ليقول له إننى أتحرش بالممرضات أو أختلس حقن المورفين ، فلسوف يأخذ الاتهام بشك أكثر ..

هكذا تركته ورحت أبحث عن مكان آخر أضيع فيه ساعاتى السوداء ..

كنت أعرف أن بعض الأطباء يجتمعون أمام التلفزيون فى هذا الوقت ، حين لا يشغلهم شىء .. وهكذا قررت أن أذهب إلى هناك ..

بالفعل كان ثلاثة من أطباء التوليد جالسين هناك يدخن واحد منهم ، ويتسلى اثنان بشرب بعض العصير .. وكان التلفزيون يعرض مسلسلاً عجيبًا لا أعرف جنسيته بالضبط ..

جلست معهم ورحت أتابع الشاشة شارد الذهن .. إن التلفزيون مفيد جدًا كمنشط للأفكار .. خاصة حين يعرض شيئًا تافهًا .. مثله فى ذلك مثل النار والبحر .. هذه أشياء خلقت للشرود عبرها لا للنظر فيها ..

هنا مال على أحدهم وهو طبيب أمريكى شاب ، من الطراز النحيل الدمث ذى العوينات إياه ، وقال فى تهذيب :

- « أرجو أن تكون الدكتورة (عبد العظيم) بخير الآن .. »

نظرت له فى غباء .. إن الغربيين لا يفهموننا وتعاملاتهم معنا قد يصفها من لا يفهمها بالوقاحة .. ما دخل زوجتى بالأمر ؟ ولماذا يطمئن عليها هى بالذات ؟ من الطبيعى جدًا عندهم أن يسأل الرجل صديقه : كيف حال زوجتك ؟ برغم أن هذه عندنا تعتبر نوعًا من الإهانة ..

لهذا قلت له فى برود :

- « بخير .. »

قال فى كياسة :

- « أرجو أن يكون النزف قد توقف .. »

هنا شعرت بمزيج من الرعب والغباء والغيظ .. رعب لأن هناك نزفًا ، وغباء لأننى لا أعرف شيئًا عن الموضوع ، وغيظ لأننى آخر من يعلم ..

لكنى تمالكت نفسى بسرعة ، وسألته :

- « هى بخير .. فقط لم تحك لى كل التفاصيل .. »

قال بلهجة من يقول شيئًا أعرفه تمامًا :

- « لقد جاءت من عيادة الأطفال جريًا لتفحصها د. (ماى فاى لين) .. تقول د. (ماى) إن هذا إجهاض منذر .. ما زال عنق الرحم محتفظًا بتماسكه ، لكن من السهل جدًّا أن يتحول إلى إجهاض حتمى .. نصحتها بالراحة ، لكن د. (عبد العظيم) أصرت على مواصلة عملها فى عيادة الأطفال .. أرجو أن تكون قد نعمت بالراحة الآن .. »

ثم حك رأسه وقال :

ـ « الأطباء أسوأ المرضى طرًا .. يعتقدون أنهم عقدوا معاهدة مع المرض ، وأنه لن يؤذيهم مثلما يؤذى الآخرين .. لهذا لا ينفذون أوهى التعليمات الصحية .. »

كنت أفهم هذه النقطة تمامًا .. وقد رأيت أطباء لا يغسلون أيديهم بعد فحص أمراض جلدية شديدة العدوى ، معتقدين أنهم أكبر من هذا .. مثلهم كمثل عمال صيانة الكهرباء الذين لا يلتزمون بأقل حيطة فى تعاملهم مع الأسلاك المكشوفة ، كأنهم يعتبرون التيار الكهربى صديقًا لن يؤذيهم أبدًا ..

قلت له ، وأنا أتأهب للنهوض :

ـ « هل كتبت لها أدوية معينة ؟ أعنى هرمونات أو أى شىء من هذا الهراء ؟ »

هز رأسه أن لا .. ورسم على وجهه علامات الاسترخاء وقال :

ـ « فقط راحة .. الكثير من الراحة .. »

هززت رأسى وغادرت المكان .. أسمع كلمة (الراحة) أكثر من اللازم هذه الأيام ..

أما وقد صرت بعيدًا عن عيونهم ، فإننى رحت أركض كالمخبول خارجًا من الوحدة ..

لماذا لم تقل لى شيئًا تلك البلهاء ؟ لماذا تركتنى أوبخها وألومها وألعب دور شرير السينما ، بينما هى فعلاً كانت مريضة ؟ هذه هى المرة الثانية التى يتكرر فيها موضوع النزف ، وقد بدأت أشعر أن هذا الحمل لن يدوم طويلاً ..

(لهذا تأخرت فى الحمام لدى عودتها)

رحت أركض حتى بلغت الفيلا ، ففتحت الباب ودخلت ..

- « (برنادت) .. (برنادت) ! »

لم يكن هناك رد ، فاتجهت متوجسًا إلى غرفة النوم ..

بالفعل كانت هناك وقد نامت على ظهرها ، وهى تتنفس بإرهاق غير عادى .. برغم الظلام فى الغرفة يمكننى أن أرى ذلك الشحوب الذى لم ألحظه من قبل ...

لماذا لم تخبرنى ؟ على الأرجح كى لا تزيد من متاعبى بعد يوم مرهق ، وهى تعرف أننى آخذ كل شىء على أعصابى ، فلم ترد أن تضيف مشكلة جديدة .. لقد حسبت أنها ستقهر تلك المحنة على قدميها كما قهرت المحنة السابقة .. ولربما

هى طريقة الأنثى الخبيثة : إنه يخطئ .. دعيه يخطئ .. دعيه يتمادى فى الخطأ إلى أقصى حد .. ولسوف يندم .. دعيه يندم .. دعيه يعض أنامله ويقرع سنه ...

مددت يدى وتحسست نبضها .. إنه منتظم .. ليس سريعًا ولا يثير القلق .. لا أعتقد أن هناك مشكلة حاليًا ..

إنها العاشرة مساء والوقت ما زال ممتدًا .. سأقضى وقتًا لا بأس به مع نفسى وحدى .. وهى من الزيارات الثقيلة على نفسى اليوم بالذات ..

خرجت إلى قاعة الجلوس الصغيرة حيث كانت تجلس حين تركتها ..

جلست أمام التلفزيون الصغير وضغطت على زر التحكم عن بعد ، وعلى الشاشة رأيت وجوهًا إفريقية تناقش مشكلة خطرة ما ..

هنا حانت منى التفاتة إلى الأريكة المجاورة للجهاز فرأيت ..

كان بنطالى هناك وقد طوى فى وضع كأن كيه قد تم .. جواره وجدت بكرة الخيط وقد غرست فيها الإبرة .. كما توقعت مددت يدى وتحسست الجيب ثم قلبته للخارج .. لم يعد هناك ثقب .. كأنما هو لم يوجد قط ..

- « لن ترتق الثقب .. هذا يقين لدى .. »

- « لن ترتق الثقب .. هذا يقين لدى .. »

- « لن ترتق الثقب .. هذا يقين لدى .. »

وعلى بعد خطوات وجدت مشجبًا على مسند المقعد ، وقد علق عليه قميص اكتملت أزراره ...

لقد فعلتها برغم كل شىء .. تحاملت على نفسها وفعلتها ..

لكنها نسيت الجوارب ولا ألومها كثيرًا ...

- « لن ترتق الثقب .. هذا يقين لدى .. »

- « لن ترتق الثقب .. هذا يقين لدى .. »

كان هذا أقوى من تحملى ، وشعرت بأن أحدهم أزاح القميص عن قفاى ليسكب فيه لترًا من الماء المثلج .. هكذا هرعت إلى غرفة النوم ، حيث الملاك النائم ما زال نائمًا .. ركعت على ركبتى جوار الفراش ، ورحت أتأمل وجهها .. تلك الجزر الغامضة على حافة العالم التى لم يرها أى رحالة سواى .. لابد أن بحارة (كولومبس) خافوا أن يصلوا إلى هذا الحد وهددوا بالتمرد ، من ثم تراجع الرجل .. لابد أن

سفينتين من أسطول (ماجلان) غرقتا قبل أن تصلا لهذه الجزر .. لابد أن خرائط الملاحة فى القرون المظلمة كانت ترسم الشياطين حول هذه المياه ، فترتجف قلوب البحارة رعبًا .. لكنى تحديت بحارتى ، وواصلت الإبحار .. فوصلت هناك .. والآن أنا جوارها أسألها الصفح همسًا ..

لثمت يدها الباردة ، وقلت بصوت دعوت الله ألا تسمعه :

ـ « أنا آسف .. لكنى أطلب فرصة واحدة .. فرصة أخيرة لى ولسوف أكون ولدًا طيبًا .. »

بعد دقائق خرجت إلى الحمام .. وضعت سدادة حوض الغسيل ، وملأته بالماء ثم أضفت بعض مسحوق الغسيل .. جئت بجواربى ووضعتها فى الماء بدورها ورحت أقلب حتى تكونت رغوة لا بأس بها ..

وهناك ـ فى الليل والسكون ـ غارقًا فى صابون الغسيل والبلل ، عرفت أن الثقب الذى ظهر فى حياتى لم يختف .. إنه باق .. لكن لا خطر منه .. ولسوف أعتاده سريعًا ..

* * *

الدائرة الثالثة

ثقب في قلب

2

حين فتحت عينيها فى الصباح كنت هنالك ..

نظرت فى رعب إلى المنبه ، وهبت جالسة ، وقالت :

- « (علاء) .. موعد العمل .. أنا .. »

كنت أنا بكامل ثيابى متأهبًا للخروج ، ومعنى هذا أننى أسبقها بربع ساعة تقريبًا .. وربع ساعة فى مواعيد الصباح أمر غير قابل للتعويض .. لكنى قلت لها باسمًا :

- « أنت فى إجازة اليوم .. لقد عرفت كل شىء ولسوف أبلغهم فى الإدارة .. فقط حاولى أن تبقى بلا حراك »

ووضعت أمامها صحفة الطعام التى أعددتها لها .. إن طهوى ردىء لكنها لن تلاحظ على كل حال ..

- « هل ستراك الدكتورة (ماى فاى) مرة أخرى ؟ »

- « طلبت منى أن أستريح يومين أو ثلاثة .. »

اتجهت للباب ، وتركتها جالسة فى الفراش تغرس الشوكة فى بعض قطع البيض .. وقلت لها بلهجة ذات معنى :

ـ « شكرًا على القميص والجيب .. أنت ملاك يا عزيزتى بينما كنت أنا الشيطان ذاته »

ابتلعت ما فى الشوكة ، وقالت :

ـ « آسفة لأن قواى تخلت عنى فلم أستطع غسل الجوارب .. »

ـ « فعلت هذا أمس .. كما غسلت بعض قطع ثيابك .. »
ـ وابتسمت وأردفت ـ « أعنى أنى زدتها قذارة . لكن الأعمال بالنيات .. »

ابتسمت وابتسمت .. وشعرت أن هذه السحابة تبتعد ...

★ ★ ★

ـ « لا شىء مثل (الروك أند رول) ليسد ذلك الثقب فى روحك ! »

★ ★ ★

عرجت على وحدة الحاسب الآلى أولاً ..

رأتنى (جرترود) التى كانت منهمكة فى تناول إفطارها الذى تأتى به من مسكنها .. فصاحت فى رعب :

ـ « أنت ! لم نترك حجرًا لم نقلبه بحثًا عنك أمس .. »

- « بحثوا عنى يا صغيرة ؟ »

- « لكنى لم أسلمك لهم .. تحملت سياطهم وتعذيبهم وصمدت .. تذكر هذا .. فى المرة القادمة حين تبغى الخلاص من مخبول ما ، فلا تأت به إلى دارى . »

وشرحت لى فى حماس كيف أن (لومبان) جاءها عشر مرات أمس ، وفى كل مرة يسأل عنى .. إلا أنه حصل على القائمة التى أرادها ، وهى قائمة طويلة فعلاً كما قالت (جرترود) ..

- « الرجل متلهف فعلاً .. كأنه موشك على تغيير تاريخ الطب .. لكنى أراهن على أنه إحصائى بارع .. »

- « بالتأكيد .. »

- « (باركر) أيضًا سأل عنك كثيرًا .. ماذا فعلت بالضبط ؟ »

- « لا أذكر .. »

مدت يدها وناولتنى نسخة من التقرير الذى طبعته على ورق الحاسب الآلى المثقب .. نظرت له فوجدت أنه يتضمن عشر صفحات بها جدول طويل مقسم إلى خانات .. الخانة الأولى تحمل اسم المريض .. ثم يأتى رقمه وتاريخ دخوله وخروجه .. والطبيب المعالج والتشخيص النهائى ...

قلت لها شاكرًا :

ـ « لا أعرف كيف أشكرك ، لكنى لم أطلب .. »

قالت وهى ترشف جرعةً من القهوة :

ـ « أعتقد أنك تمقت أن تكون آخر من يعلم يا (عسل) .. كيف حال الزوجة ؟ »

هززت رأسى .. طبعًا لن أحكى عن الإجهاض المنذر لهذه الثرثارة ..

هكذا خرجت بغنيمتى التى حرصت على أن أدسها فى جيبى .. لو قابلت (باركر) الآن لصارت لديه أسئلة محرجة .. ويسهل على أى طفل أن يخبرنى بأن هذا ليس من حقى ..

★ ★ ★

ـ « هل رأيت (بسام) ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « هل رأى أحدكم الطبيب التونسى الشاب ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « هل رأيتم (بسام) ؟ »

ـ « لا .. »

هكذا فشلت كل محاولاتى للعثور عليه .. لايوجد نيل هنا لأحسبه قد رمى بنفسه فيه .. فأين ذهب ؟

هكذا قررت أن أتوجه إلى غرفته فى مسكن الأطباء .. قرعت الباب عدة مرات ، وفى النهاية سمعت صوته الواهن يقول :

- « أدخل .. »

فتحت الباب فى توجس لأجده راقدًا فى الفراش بمنامته ، وهو يمسك بصورة فى يده .. وقد ذكرنى بمشهد الموت فى الأفلام العربية .. طبعًا هذه الصورة هى صورة (حبيبة) .. لا أحتاج إلى أن أقلبها ..

قلت له ، وأنا أجلس على حافة الفراش :

- « لم تذهب للعمل بعد ؟ »

قال فى شرود :

- « وما نفع ذلك ؟ أنا إنسان منته .. »

كدت أجن من الغيظ .. فعلاً الأطباء هم أسوأ المرضى طرًا ؛ لذا سألته السؤال المنطقى :

- « هل فحصك أحد من قبل فى وطنك ؟ »

- « نعم .. كثيرًا .. »

ـ « ولم يقل أحد إن بقلبك ثقبًا ؟ »

ـ « لابد أنهم غافلون . »

ـ « بل لأن الثقب صغير جدًا ويصعب اكتشافه بالسمع .. هذا ثقب لن يؤثر على حياتك أبدًا .. لقد ولدت به وعشت كل هذه السنين فلن يختلف الأمر .. »

وتحسست جبينه .. فعلاً هو محموم .. أعتقد هذا ..

قلت له وأنا أساعده على النهوض :

ـ « أنت تفضل البقاء هنا لكتابة مذكرة الوداع .. (وداعًا أيها العالم القاسى فأنا سأتركك اليوم) .. هذا يروق لك .. لكنى أنصحك بأن تجد سببًا أقوى .. لا أحد يموت بثقب صغير فى قلبه .. »

قال فى إنهاك :

ـ « لكن الأمور ستسوء من الآن فصاعدًا .. هناك أمراض كثيرة تفصح عن نفسها فى سن متقدمة .. إن فكرة وجود ثقب فى قلبى لاتفارقنى .. صار من شبه المستحيل أن أمارس حياة طبيعية ، ولهذا أكره أن يلمسنى أى طبيب .. سوف يخبرنى بخلل كنت سعيدًا من دون معرفته .. »

قلت وأنا أساعده على ارتداء ثيابه، فقد كـان مرتخيًا تمامًا كأنه دمية (ماريونيت Marionette) قطعت خيوطها :

- « سنذهب إلى قسم القلب، وهناك أتوقع أن يجيب الألمـانى عن أسئلتك .. »

★ ★ ★

قال د. (شميت) وهو يدس يديه فى جيبى معطفه :

- « صديقك لايصدق شيئًا .. أعتقد أنه يريد أن يمرض .. »

كنت أنا نفسى أرغب فى قول الشىء ذاته، لكنى لـم أقلـه .. على حين استطرد الطبيب الألمانى :

- « هناك ثقب .. عيب ولد به، وهذه القصـة تتكرر كثيرًا جدًا .. كل وظـائف قلبـه ممتـازة ولا يوجد تضخم فـى أيـة غرفة .. لقد عاش كل هذه الأعوام بهذا الثقب، وأتوقع أنـه سيكمل خمسين عامًا آخر به .. لو كـانت الأمور أسوأ لنصحته بإجراء جراحة لإصلاح الثقب .. »

ثم نظر إلى (بسام) بحزم وقال :

- « اذهب وعش حيـاتك .. أمـا إن شئت أن تموت هنـا فهذا شأنك .. »

لكن الأمر بالنسبة لى ظل محفوفًا بعلامات استفهام ، لذا سألته :

ـ « وهل اختلال الضربات ناجم عن هذا الثقب ؟ »

ـ « بالطبع لا .. لقد تزامن العرضان .. فقط جعلنا اختلال الضربات نجرى فحصًا بالأشعة فوق الصوتية .. »

ـ « وهذا الارتفاع فى درجة الحرارة ؟ »

قال وهو يخرج المسماع من جيبه ، ليفحص مريضًا آخر :

ـ « هذه الأشياء تحدث .. أقترح أن تسأل أحد مختصى طب المناطق الحارة .. هناك مليون سبب لارتفاع الحرارة ، لكن لا تبحث عن الإجابة هنا .. »

فكرت فى (آرثر شلبى) كثيرًا .. هذا الأحمق كان ليغدو مفيدًا الآن لكنك لا تلقاه أبدًا حين تحتاج إليه .. لهذا لا مفر من أن أعتمد على نفسى لأننى لم أجرب أى طبيب آخر فى ذلك القسم ..

هكذا أخذت (بسام) إلى المختبر ، وعملت على أن آخذ له صورة دم .. مع بعض اختبارات ضرورية .. وجاءت النتيجة بعد ساعة تقريبًا تقول إن كل شىء على ما يرام ..

قلت له وأنا أودعه على باب غرفته :

- « أنت زججت بنفسك فى تلك الدائرة المفرغة الشيطانية .. أخاف أن يكون قلبى مريضًا .. من ثم تتسارع ضربات القلب وتضطرب .. من ثم يتضاعف خوفك .. إلخ .. كف عن هذا وتصرف ببعض العقلانية .. »

وانصرفت لأواصل عملى .. لابد أولاً من أن أتأكد من أنهم يعون إن (برنادت) متغيبة لسبب مرضى ...

وليتنى ما فعلت !

- « إن (برنادت) لن تستطيع أن ... »

- « إذن تعال أنت ! ستحل محلها !! »

ثم :

- « واء واء واااااااء !! »

لم يجدوا خيرًا منى كى يسدوا به تلك الثغرة فى عيادة الأطفال ! ولو قرع الباب متسول لأدخلوه بالقوة وأرغموه على أن يتولى شأن العيادة .. وأنا لا أطيق جحيمين : عيادة الأطفال وقسم التوليد .. يبدو أن السبب هو وجود الأطفال والصراخ فى الحالتين ..

إن طب الأطفال معجزة صغيرة ، خاصة مع مريض لاينطق ولا يشرح لك شيئاً ، ولا يكف عن العويل بحيث لاتسمع شيئاً على صدره على الإطلاق .. تقول النكتة القديمة السخيفة إن طبيب الأطفال يصير طبيباً باطنياً حين يكبر .. الحقيقة أن طب الأطفال أكثر تعقيداً وصعوبة من الطب الباطنى ، أو هذا هو رأيى الخاص ..

دعك من الحماس غير المسبوق للأمهات الكاميرونيات الواقفات بانتظار دورهن ، ودعك من كل الفضلات البشرية والمخاط و .. و .. الخلاصة إننى تمنيت لو اخترت شخصاً آخر ليبلغهم بتغيب (برنادت) ..

ظللت أعمل هناك حتى الثالثة بعد الظهر ، وصارت يدى تكتب العلاج وحدها .. وأذنى تسمع الصراخ وحدها .. بينما كنت أنا فى عالم آخر كنيب ... أما معطفى فلم يعد له لون من كل ما تساقط عليه ..

كان آخر الأطفال يعانى حمى روماتزمية أتلفت صمامه الميترالى ، وكانت تنبعث من قلبه أصوات مختلطة تذكرك بـ (طلمبة الرى) فى الحقل ..

قست حرارته فوجدت أنه محموم ...

رحت أصغى لقلبه ، وفى هذه اللحظة توهجت فكرة فى ذهنى ...

القاعدة القديمة .. كل حمى فى مريض بروماتزم القلب قد تكون التهابًا نشطًا بالقلب أو ...

رباه !

★ ★ ★

من جديد كرر د. (شميت) فحص قلب (بسام) بالموجات فوق الصوتية ، وكرر ما قاله :

– « سلبى .. لا يوجد شىء سوى هذا الثقب .. »

قلت له بإلحاح :

– « هل هذا كاف لاستبعاد تشخيصى ؟ »

هز رأسه مفكرًا ، وقال :

– « لا .. أحيانًا نجعل المريض يبتلع منظارًا فيه مسبر Probe .. هذا يزيد من دقة التشخيص كثيرًا .. لكن حتى هذه التقنية تفشل أحيانًا »

ثم أضاف وهو يتأمل (بسام) :

ـ «لكن الاحتمال وارد طبعًا ويجب ألا نجازف .. سنقوم بأخذ مزرعة دم منه ، ثم نقوم بإعطائه مزيجًا من (البنسللين) و (الجنتاميسين) .. »

وأصدر تعليماته إلى الممرضة ، كى تسحب عينة من دم (بسام) ....

كنت واثقًا من أن قصتى أقرب إلى الصواب .. لو كان (شلبى) هنا لأبدى إعجابه بعبقريتى .. وأدهشنى أن هذه الفكرة فاتت الطبيب الألمانى الأريب .. لكن جميعنا معرض للسهو وحتى (هومير) يحنى رأسه ..

لقد خلع (بسام) ضرسًا منذ فترة ، وفى وقت لم يكن أحد يعرف فيه أنه مصاب بثقب بين البطينين .. يعتبر هذا عملاً خطرًا لأنه يسهل دخول البكتريا إلى دمه لتثبت على صمام تالف أو عيب خلقى معين .. من الواجب أن يتلقى أولاً جرعات وقائية من المضادات الحيوية قبل وبعد عملية خلع الضرس ..

هل حدث هذا من قبل فى حياته ؟ جائز الآن هذا ليس أول ضرس طبعًا ، لكن الإصابة بالمرض تعتمد على مقدار ما دخل دمه من بكتريا على كل حال .. ربما نجا بشكل ما فى المرات السابقة ...

تزرع البكتريا نفسها على الصمام التالف ، وتحمى نفسها بطرق لا مجال لذكرها هنا ، ثم تتفتت منها قطع صغيرة تجوب الجسم .. إلى المخ .. إلى الكليتين .. إلى الجلد .. فى كل صوب .. وهذا هو المرض المخيف الذى نعرفه باسم (التهاب الشغاف المعدى Infectiv endocarditis) .. والشغاف هو الغشاء الرقيق المبطن للقلب من الداخل .. هذه اللفظة الرقيقة التى استهلكها الشعراء ، قد تتحول إلى كابوس ..

لقد أعلن الثقب عن نفسه لدى (بسام) .. وهذا الإعلان تزامن مع إصابته للمرة الأولى فى حياته بالتهاب الشغاف .. هذا يفسر ارتفاع حرارته الطفيف ، وقد يفسر اضطرابات الضربات .. لم يجد الفحص بالموجات فوق الصوتية شيئًا لكن هذا يحدث كثيرًا ..

وراقبت فى قلق الإبرة وهى تنغرس فى عروق (بسام) لتفرغ خليط (البنسللين) و (الجنتاميسين) ..

لن نعرف الحقيقة قبل أن تظهر نتيجة مزرعة الدم .. وقتها أعرف هل أنا مجرد أحمق آخر ، أم أننى بالفعل أنقذت حياته بهذا الإلهام ..

كأنما سمع الطبيب الألمانى أفكارى قال :

ـ « من الأفضل أن تكون مخطئًا من أن تكون متأخرًا .. إن سياستك حكيمة ، ولن يخسر هذا الشاب شيئًا لو اتضح أنك بالغت فى الحذر .. أما لو اتضح أنك محق فإن حياته مهددة .. إن التهاب الشغاف يقتل .. »

ونظرت لـ (بسام) وابتسمت له ، فابتسم لى بدوره ابتسامة لم تخف قلقه البالغ على نفسه ..

وبالعربية قال لى :

ـ « شكرًا يا أخى .. »

* * *

الدائرة الثانية

ثقب فى الفضاء

2

- « لاشىء مثل (الروك أند رول) ليسد ذلك الثقب فى روحك ! »

* * *

بدأ (بسام) يتقبل الحقيقة نوعًا ..

إنه طفل .. كلنا أطفال فى الواقع .. لانقبل أن نكتشف خللاً فى أعضائنا ، وكأنها حق مكتسب لنا .. وأعتقد أن موضوع هذا الثقب سينغص حياته لفترة لا بأس بها إلى أن يعتاده .. حين يدرك أنه لايؤذيه ، وإن مشكلته الوحيدة هى حاجته إخبار طبيب الأسنان والجراح بمرضه قبل أية جراحة ، ليتلقى جرعة وقائية من المضادات الحيوية ..

لكنه - فيما بعد - سيكتب القصة لـ (حبيبة) ، ولسوف يصف لها عذابه وآلامه ولربما سجل لها أغنية (كنت أتمنى يطول العمر) بصوته .. عندها سيعرف أن ثقب القلب هو أروع ما حدث له فى حياته ..

إنه سوف ....

ـ « أين أنت ؟ »

كذا صاح الفرنسى (لومبان) بصوته الجهورى ، إذ قابلنى فى الردهة ، وقد أربكنى هذا الصياح لأن الكثيرين نظروا لى فى فضول ..

قلت مرتبكًا :

ـ « ظروف معقدة تنهال على رأسى .. زوجتى فى مشكلة تتعلق بالحمل .. صديقى مريض .. وقد سألت عنك اليوم فلم أجدك . »

قال وهو يمسك بمعصمى ويقتادنى خلفه :

ـ « ليكن .. حسبت للحظة أنك تلاشيت من الخارطة .. هل رأيت نتائجى ؟ »

ـ « فى الواقع ... »

كان يقتادنى إلى الحجرة التى أعدها له المدير فى (سافارى) ، ودخلت لأرى مشهدًا يذكرك بإدارة الإحصاء فى أكاديمية البحث العلمى ، لو كانت عندهم إدارة بهذا الاسم .. حاسب آلى مفتوح .. جداول .. عشرات الأوراق المطبوعة .. مراجع .. الخلاصة أن هذا الرجل لم يضيع وقته ..

قلت له :

- « أرى أنك لست بحاجة إلىّ على الإطلاق .. »

قال وهو يتخذ مقعدًا :

- « بالعكس .. قد أفيد من ناصح يسدى لى بعض الرأى السديد الأمين .. »

ثم ضغط على بعض الأزرار فظهر على الشاشة جدول شديد التعقيد .. كنت أمقت الجداول بطبعى وأقفز عليها بعينى كلما قابلتنى فى كتاب ما ، وأتمنى أن أقول لصاحب الجدول ما معناه (هات من الآخر) .. ما خلاصة هذه الأرقام المعقدة التى أراها أمامى ؟

- « ما خلاصة هذه الأرقام المعقدة التى أراها أمامى ؟ »

قال فى فى ثقة مضحكة نوعًا :

- « هذه هى النتائج فى كل وحدة طبية إفريقية أجريت فيها دراستى .. نسبة سرطان الجلد الأسود ، وسرطان الخلايا القاعدية ، وعتامة عدسة العين .. ثابتة لا تتغير وهى قريبة جدًا من المعدل العالمى .. »

- « وهل هذا مهم ؟ »

ـ «نعم .. المفروض أن ثقب الأوزون لايؤثر فى الأفارقة .. هل تعرف السبب ؟»

ـ «طبعًا بسبب جلدهم الأسود الذى يلعب دور المظلة الشمسية .. »

قال فى لهجة منتصرة :

ـ «ولأن سمك الأوزون على ما يرام فوق إفريقيا .. هذا هو الرأى المعتاد الذى يقال للطلبة»

ثم ضاقت عيناه وأردف :

ـ «نسبة سرطان الجلد فى هذا البلد عالية نوعًا أو عادية تمامًا .. ألا ترى أن هذا مهم ؟»

★ ★ ★

قالت (برنادت) :

ـ «أعتقد أننى أتحسن .. لا أعرف حقًا لكن لايوجد مزيد من النزف .. »

كانت قد أمضت اليوم على ظهرها .. وهو تعذيب نازى لايمكن وصفه .. لكنى على كل حال حملت التلفزيون الصغير الذى نملكه ، ووضعته فى غرفة النوم على منضدة صغيرة .. هكذا صار بوسعها أن تتابع البرامج السخيفة وجهاز التحكم عن بعد فى يدها ..

كنت فى هذه الأيام قد بدأت ألعب دور الزوج المثالى .. طهوت لها وجبة غير دسمة لكنها مغذية ، وجلست جوارها ورحت أناولها الطعام فى رفق ، فلم ينقصنا إلا كاميرا فيديو وبعض المدعوين ، ليتحول الأمر إلى حفل زفاف آخر ..

قالت ضاحكة وهى تجفف شفتيها بالمنشفة :

- « لو كنت تعتبر أننى كيس يجب حشوه بالطعام فأنت مخطئ .. »

- « من حسن حظك أن أمى ليست هنا .. فهى تؤمن بأن للمرض بشتى أنواعه سببين : الجوع والبرد .. وتحت هذين المسميين تلخص علم (مسببات المرض) كله ، بدءًا بسرطان الشبكية وانتهاء بالجذام .. »

ضحكت فى إرهاق ثم سألتنى :

- « هل ستذهب للوحدة الآن ؟ »

- « هذا الأحمق (لومبان) يريد أن أمر عليه الليلة بالذات .. ثمة شىء يريد إثباته بعنف .. »

- « هل لديك فكرة عنه ؟ »

- « لا أعرف .. إن شيئًا هلاميًا غامضًا يدور فى أعماق

عقلـه .. لا أعرف مـا هو حقًا .. والكارثـة ألا يعـرف هـو الآخر .. ثمة فكرة تنقر البيضة محاولة الخـروج ، وهو قد كونها من زمن لكنه لا يفصح عنها بوضوح . »

ونظرت إلى ساعتى معلنًا أن علىَّ الانصراف الآن ..

ـ « هل تريدين شيئًا ؟ »

ـ « أريد أن تظل فى هذه الحالة الوقتية .. »

ـ « إنهـا (السحابة تسعة) كمـا يقول الأمريكيون .. لن أظل هكذا طويلاً .. »

الحقيقة أنى لا أعتقد أنها ستحب (علاء) الجديد لو بقى كذلك .. هناك قصة شهيرة جدًا للإيطالى (ألبرتو مورافيا Moravia) عن رجل تخلت عنه زوجتـه وهو لا يعرف السبب .. يتساءل : لقد كنت أنظف الشقة يوميًا .. أتأكد من وضع الأزهار في المزهرية .. لا أترك التبغ فى مطفأة .. لم أطلب منها شيئًا أو ألومها على شىء .. فيقول له معارفه فى كل مرة : لا تفتش عن الحقيقة أكثر من اللازم . والحقيقة هى أنها تركته لهذه الأسباب بالذات ؛ لأنه ممل رخو مطيع لدرجة تثير الغيظ ...

القليل جدًا من سوء الطبع قد يكـون مفيدًا ، ويلعب دور ملح الطعام الذى لا نستغنى عنه أبدًا ..

★ ★ ★

قرعت الباب عدة مرات فم يرد أحد ..

هكذا توكلت على الله وأدرت المقبض ، ودخلت فى الظلام إلى غرفة (لومبان) .. لايوجد أحد .. هذا غريب ..

فجأة وقد بدأت عيناى تعتادان الظلام أرى ذلك الجسد المكوم على الأريكة وسط عشرات الأوراق الممزقة والمكرمشة .. سأصاب بدهشة لو أمضيت عامًا واحدًا فى حياتى لم أصطدم فيه بجثة فى الظلام ..

كان هذا هو (لومبان) نفسه .. وجريت إلى مفتاح النور وأضأته ..

كان بثيابه الكاملة ، وكان حيًا يرزق وإن كان فى أسوأ حال ممكن .. لقد تلقى ضربة على جانب رأسه كما هو واضح ـ لأنه يضع يده على هذا الجزء ـ وقد شلته جزئيًا ، لكنها لم تؤذه إلى الحد المرجو .. ويبدو أنها حديثة جدًا لأنه لم يستعد توازنه بعد ..

أجلسته وبحثت عن شىء أقدمه له ، فوجدت ثلاجة صغيرة بها بعض علب المياه الغازية .. فتحت واحدة ووضعتها فى كفه ويبدو أن برودتها جعلته يسترد توازنه بشكل أفضل ...

قلت له أخيرًا :

ـ « من فعل هذا ؟ »

شرب جرعة كبيرة ، وقال عبارات متقطعة لاهثة فهمت منها :

ـ « لا أعرف .. أحدهم كان فى الغرفة ، ولم أتنبه لهذا إلا حين دخلت .. كنت أبحث عن مفتاح النور فى الظلام حين تلقيت ضربة قوية ، ثم فرّ من اعتدى علىّ .. لم أعرف شيئًا ولم أتبين من هو .. »

حمدت الله على أنه حى .. أولاً لأن حياته أفضل من مماته ، ثانيًا لأن الاتهامات كانت ستوجه إلىّ قبل سواى كما هى العادة .. من الأحمق الذى كان فى الغرفة فى الظلام بينما الرجل فاقد الوعى ؟

ـ « هل تعرف السبب أو خمنته ؟ »

قال لاهثًا :

ـ « لا أعرف ..ولا أعتقد أن ما أقوم به بهذه الأهمية .. ولكن ... »

ثم نهض كالملسوع يطوح رأسه الكبير فوق جذعه الدقيق ، فصحت به :

ـ « مهلاً ! بهدوء ! »

راح يبحث بين أوراقه كالملهوف ، وتفحص جهاز الكمبيوتر .. ثم قال فى رضا :

- « لم يسرق شىء .. كل شىء فى مكانه .. أعتقد أنك جئت فى الوقت المناسب .. »

جلست على الأريكة وأخذت شهيقًا عميقًا وسألته :

- « هل يضايقك لو شرحت لى هذا الذى تقوم به ؟ »

هكذا بدأ يشرح لى القصة من البداية ...

* * *

قال (لومبان) بعدما استرد قواه كاملة :

- « لا أعرف إن كانت عندك فكرة عن الموضوع ، لكنى سأكون مبسطًا قدر الإمكان .. هل تعرف قصة ثقب الأوزون ؟ »

قلت له وأنا أعتصر معلوماتى العامة ، فلا تنز منها إلا قطرات شحيحة :

- « فقط القشرة اللازمة لرجل ليس جاهلاً لكنه غير متخصص .. أعرف أن هناك ثقبًا وأنه يتسع .. وأننا نحن سبب ذلك .. وأن هذا مؤذ .. »

ابتسم في نوع من الإحباط ، كأنه يقول (لم أتوقع أكثر منك) ، وقال :

- « أنت تعرف أن الغلاف الجوى لكوكب الأرض يتكون من ثلاث طبقات أساسية هى (التروبوسفير Troposphere) هى الملاصقة للأرض و (الستراتوسفير Stratosphere) وهى التى تحوى غاز (الأوزون Osone) فى جزء منها ، وهذا يسبب ارتفاعًا شديدًا فى حرارتها . بعد هذا تأتى طبقة (الأيونوسفير Ionosphere) وهى - كما يوحى اسمها - مليئة بالأيونات التى تعكس موجات الراديو .. خاصة الموجات القصيرة ، لذا يسهل عليك التقاط موجات الراديو القصيرة ليلاً عندما لا يعوق شىء هذه الطبقة عن عملها .. وهى الطبقة التى تسبب ظاهرة الشفق القطبى (أورورا Aurora) .. »

- « إن الأوزون غاز سام ويستخدم بكثرة فى عمليات التعقيم والتطهير ، وهناك دراسات كثيرة غير مقننة وغير معترف بها ترمى إلى استعماله في أمراض الكبد وسواها ، وهو يتركز فى طبقة (ستراتوسفير) كما قلت .. بالذات على ارتفاع 28 إلى 30 كيلومترًا .. وهو يجدد نفسه باستمرار بفعل البرق ، وبفعل الأشعة فوق البنفسجية .. لاحظ ما أقول هنا .. كل الكيميائيين عرفوا أنه لا شىء يفنى ولا يخلق من عدم ، والكون قادر على تجديد موارده .. »

رفعت يدى محتجًا لكنه أشار لى فى ضيق بمعنى أن الإجابة قادمة ، وأردف :

- « يمكن اعتبار الأوزون رداء كونيًا يحمينا من الإشعاعات الكونية الضارة .. وقد عرف الناس هذه الحقيقة من زمن .. إلى أن عرف العلم موضوع ثقب الأوزون .. الكارثة البيئية التى صارت على كل لسان .. »

- « نحن الآن فى العام 1957 حيث يتجه البروفسور البريطانى (جو فارمان) مع بعثة استكشافية إلى القطب الجنوبى .. هناك قاموا بقياس مستوى الأوزون فى الجو باستعمال جهاز يدعى (محلل دوبسون الضوئى Dubson's spectrophotometer) .. ظلت البعثة تتابع مستويات الأوزون شبه الثابتة عدة أعوام .. وفجأة انفتحت بوابة الجحيم .. ما هذا ؟ إن التركيز يتناقص بشكل مطرد .. وفى عام 1977 بلغ النقص نحو 40% .. هكذا أطلقوا صرخة هلع كونية : نحن نفقد الغطاء الواقى الذى خلقه الله لنا .. لقد حدث فيه ثقب يتزايد عامًا بعد عام ! »

ما السبب ؟ إصبع الاتهام الأول اتجه نحو الطائرات النفاثة التى تطير فى طبقة (ستراتوسفير) .. إن عادمها يطلق أطنانًا من الغازات كل ساعة .. وسبب تفضيلها لهذه الطبقة أنها فوق السحب وعوامل الجو المتقلبة .. إن الطائرة الفرنسية (كونكورد) بالذات لها سمعة سيئة فى هذا الصدد ، وقد أوقف إنتاجها على كل حال ، ولكن لأسباب أخرى غير ثقب الأوزون ...

الإصبع الثانى اتجه إلى غاز (الكلوروفلور كاربون) .. هذا الغاز الذى ينبعث من ملايين زجاجات الإسبراى وملايين أجهزة التكييف .. لقد تم اكتشافه عام 1928 واعتبر وقتها فتحًا علميًا جديدًا ، وكان مثاليًا لعملية التبريد ؛ لذا استخدم فى الثلاجات والمكيفات .. وهو ما يطلق عليه الفنيون اسم (الفريون) . كما أنه مفيد فى صنع الرغويات .. الرغويات التى يحشون بها الأثاث ، والإسفنج الصناعى وعبوات الأطعمة الجاهزة والتغليف .. لكن هذا الغاز طويل العمر قد يتجاوز بقاؤه فى البيئة قرنًا ، لا يكف خلاله عن إطلاق غاز الكلور .. هذا هو ما اكتشفه العالمان (رولاند) و(مولينا) عام 1974 ..

إن ذرة كلور واحدة لقادرة على تخريب عدد كبير من ذرات الأوزون ، وهى تجدد نفسها من جديد بعد كل تفاعل .. يقول البارون (منخاوزن Munchhausen) ـ الفشار الأعظم ـ إنه اصطاد سربًا من الأوز بحبة قمح واحدة ربطها بخيط ، وألقاها للأوزة الأولى .. ابتلعتها وأخرجتها فى فضلاتها فابتلعتها الأوزة الثانية .. هكذا دواليك .. حتى صار السرب كله كحبات العقد وما كان عليه إلا أن يمسك بطرفى الخيط ![*]

(★) (منخاوزن) كما استنتج القارئ هو (أبو لمعة) الغربى ، وهناك مرض اسمه (متلازمة منخاوزن) حيث يهوى المريض زيارة المستشفيات ليحكى أعراضًا تحير الأطباء ، وربما يصل الأمر إلى إجراء جراحة استكشافية له .. إنه باختصار (إدمان المستشفيات) أو (إدمان المعطف الأبيض) ..

حسن .. الواقع أن الكلور يلعب هذا الدور بـالذات .. وهكذا ولد الخوف من كل مفردات الحضارة الحديثة التى تبعث هذا الغاز من حولها .

إصبع الاتهام الثالث اتجه إلى الأسمدة وإلى التفجيرات النووية ..

- « فى العام 1986 اكتمل هذا الجهد ببعثة أمريكية أوفدتها (ناسا NASA) إلى القطب الجنوبى .. هذه المرة كانت هناك طائرات تجسس ومعدات متقنة ، وقد وجد هؤلاء العلماء أن الفجوة فوق القطب الجنوبى تتكون فى الربيع القطبى .. ومساحتها هى نفس مساحة الولايات المتحدة الأمريكية ، وعمقها هو عمق جبل (إفرست Everest) ، بل إن هذا النقص امتد ليؤثر فى الأرجنتين ونيوزيلندا وأستراليا .

« فى نفس العام وجد بعض العلماء الكنديين أن هناك ثقبًا آخر فوق القطب الشمالى .. إنه ثقب أصغر ، وقد ذهبت حملة عام 1988 لقياسه فى القطب الشمالى ، فى مهمة عرفت باسم Technops .. ووجدت أن هذا الثقب يمتد إلى النرويج نفسها ..

« إذن الأوزون يتناقص .. هذا ما قالوه .. وهذا يؤدى إلى عدة

كوارث .. كانت الملاحظة الأولى هى انتشار سرطان الجلد وعتامة عسة العين بين سكان الهيمالايا .. فى الولايات المتحدة تشخص ستمائة ألف حالة سرطان جلد جديدة بعد كل موسم صيف ، لأن الناس ـ لسبب لايعلمه إلا الله ـ يحرقون جلودهم تحت الشمس بغية اكتساب اللون البرونزى الجميل ..

« وتقليديًا يؤمن العلماء أن سكان المناطق الاستوائية وحوض البحر المتوسط أقل تعرضًا لهذا السرطان بسبب بشرتهم الداكنة .. السبب الثانى هو أن أشعة الشمس تسقط عمودية على خط الاستواء بينما تسقط بميل على شمال الكرة الأرضية وجنوبها »

هنا قلت بعدم فهم :

ـ « معنى هذا أن سكان المناطق الاستوائية يتعرضون أكثر .. »

ـ « بالعكس .. الأشعة المائلة تؤذى الأجساد أكثر لأنها تنال منها قسطًا أوفر . على كل حال يقول الأمريكيون إن نقصًا قدره 3% فى الأوزون معناه زيادة 18 ألف حالة سرطان جديدة كل عام ! »

صفرت بفمى غير مصدق ، فأردف قائلاً :

- « دعك من تأثر المحاصيل الزراعية .. وموت الأسماك ، فإن السموم التى يطلقها أهل الأرض تؤدى لتركز الأوزون فى طبقة (تروبوسفير) ونقصه فى طبقة (ستراتوسفير) .. معنى هذا ارتفاع حرارة الطبقة الأولى .. وهذا هو سبب ارتفاع حرارة الجو ، مع ما يسمونه بـ (تأثير الصوبة الزجاجية Green house effect) .. الحرارة تدخل ولا تخرج .. حرارة الجو تتزايد .. المحاصيل تموت .. الثلوج تذوب .. الأراضى تغرق .. عندكم فى مصر بلدة ساحلية تدعى (رشيد) يعتقد العلماء أنها أول مدينة فى الكون ستغرق فى العصر الحرارى الجديد .... »

قلت له وقد بدأت أتوتر :

- « إن الأمر جد خطير .. أعرف جزءًا مما قلته لكنى لم أستطع قط تصور أن الخطر قريب وملموس لهذه الدرجة .. ماذا تقترح ؟ الحقيقة أنك تفعل ما فعله أنبياء العهد القديم .. لا تكف عن تذكير الناس بسوء العاقبة .. وهم لا يصغون »

ابتسم ابتسامة غامضة وقال :

- « أنا ألعب دور أنبياء العهد القديم ولكن بشكل معكوس .. أنا أنصح الناس ألا يصغوا !!! »

★ ★ ★

لم أفهم ما يريد قوله ، فقال وهو ينهض ليغلق الباب الذى كان مواربًا أكثر الوقت :

ـ « تركز ملاحظاتى على بعض نقاط مهمة .. هل يوجد أى تلوث فوق القطبين ؟ إنهما غير مأهولين بالناس ، فكيف تحتشد هذه التأثيرات فى هذه المنطقة بالذات ؟ يردون على ذلك قائلين إن الرياح القطبية تجذب الدوامات الملوثة إلى هذين المكانين ..

« يرى بعض العلماء ـ وهم يقاتلون وحيدين وظهرهم للجدار ـ أن ثقب الأوزون ليس أكثر من ظاهرة طبيعية تتكرر بشكل منتظم .. وسبب وجوده هو الظواهر الطبيعية فوق القطب الشمالى .. لقد كان هناك دائمًا ثقب أوزون فوق القطبين وسيظل كذلك .

« هذه الفجوة تلتئم فى الشتاء القطبى ثم تعود للظهور مع الربيع القطبى .. فقط لم يرصده أحد من قبل .. لكنه موجود منذ الخليقة .. »

كان يتكلم فى حماس وهو يجوب المكان .. عيناه تكادان تثبان من محجريهما ، وطاقة نفسية هائلة تشع منه ، حتى بدا لى الرجل الضئيل يتضخم ويتضخم .. وكانت حركاته

توحى لى بأنه يقاتل مجموعة من الفرسان الشرسين .. هنا فهمت .. لقد قاتل هذا الرجل كثيرًا وهو يعلن هذه الآراء ، وسخر منه الكثيرون حتى صار الأمر أقرب إلى مبارزة يدافع بها عن حياته ووجوده ذاتهما لا مجرد جدل علمى ..

استطرد الرجل (وكلمة استطرد دقيقة جدًا هنا .. تذكرك بأيام الكر والفر فى المعارك) :

- « إن غاز الكلور لا يصل لارتفاع 30 أو 40 كيلومترًا ليسبب الثقب المفروض .. ومناخ الأرض لم يتغير .. كيف نقول إنه تغير بينما لم يبدأ تسجيل مناخ الأرض إلا منذ مائتى عام ؟ وكل شىء - فى رأى هؤلاء العلماء المغنين خارج السرب - يشير إلى أننا نتجه نحو عصر جليدى ثان .. إن ظاهرة (الصوبة الزجاجية) لاوجود لها .. منذ ألف سنة كانت جزيرة (جرينلاند Greenland) جديرة باسمها الذى معناه (الأرض الخضراء) .. ماذا عنها اليوم ؟ إنها أرض جليدية بالكامل ..

« إن أية زيادة فى حرارة الأرض ستوازنها زيادة فى السحب العاكسة لدرجة الحرارة .. إن الاتزان الطبيعى لكوكبنا قادر على تصحيح درجات الحرارة وتصحيح ما يختل فى الجو ..

المادة لا تفنى ولا تستحدث من عدم .. هل نسيت هذا القانون الكيميائى البسيط ؟

« ليس للأوزون دور فعال فى منع الأشعة فوق البنفسجية عن الأرض .. الأتربة فى الجو هى التى تلعب الدور الأعظم .. لهذا لا أعتقد أن للأوزون دورًا فى منع السرطان إلى الحد الذى يزعمونه(*) .. »

رحت أفكر فيما يقول .. يبدو هذا الكلام جريئًا جدًا ومقتحمًا .. لقد نشأت مع (ثقافة الأوزون) وصارت من بديهيات عالمى .. الآن يأتى من يقول لى إن هذا هراء .. أنا لست متخصصًا ولا أستطيع البت فى قضية كهذه .. لكن ما دخل هذا فى العمل الذى قام به هنا ؟

قال (لومبان) وقد أخبرته بتساؤلاتى :

- « هذا جزء من عملية مسح أقوم بها بنفسى فى أكثر من بلد إفريقى .. والنتيجة المثيرة هى أن حالات سرطان الجلد فى بلد مثل (الكاميرون) تتساوى مع بلدان العالم الغربى حيث البشرة القوقازية البيضاء التى لا تقى من الشمس .. »

(★) من بين العلماء المصريين ، يؤمن الأستاذ الدكتور (جمال الدين الفندى) أبو علم الأرصاد فى مصر ، والدكتور (رشدى سعيد) بهذه النظرية الثورية .. وهم من الأهمية بحيث لا يمكن أخذ آرائهم ببساطة ..

قلت له فى غيظ :

- « أنت تشكك فى مبدأ طبى خارج اختصاصك هذه المرة .. أشعة الشمس تسبب سرطان الجلد .. هذا مفروغ منه ، وأنت بنفسك ذكرت إحصاءات مهمة .. »

قال فى تحد :

- « نعم .. لكن المفترض أن ثقب الأوزون لا تأثير له فى الكاميرون .. هنا سمك طبقة الأوزون محترم ولا بأس به ، وبشرة الناس سمراء .. المفترض أن تكون هنا أقل نسبة إصابات فى العالم .. »

ثم توقف عن الكلام وقد أنهكه الانفعال ...

ساد الصمت .. وبعد قليل سألته :

- « ليكن .. أنت تفرض أن المشكلة ليست بهذه الخطورة .. هل يمكنك أن تفسر سبب إصرار العلماء عليها ؟ »

* * *

- « الشركات العملاقة ! »

قالها وكأنما هو قال كل شىء .

أخيرًا قرر أن يجلس ويهدأ ..

أنا أكره نظرية المؤامرة ، وأراها سببًا من أسباب تخلفنا إن لم يكن السبب الأهم .. وأعتقد أن تفسير التاريخ بهذه الطريقة نوع من ضيق الأفق ..وللأسف هى تلاقى نجاحًا فى أية لحظة لأنها تظهرنا بمظهر العالمين ببواطن الأمور ، وتجعل الآخرين يبدون أكثر سذاجة ..

فى الأسواق المصرية انتشر دواء لأمراض الكبد لاجدوى منه تقريبًا ، أو ـ على الأقل ـ هو لم يقنن ولم يخضع لدراسة علمية صارمة .. عندما تقول هذا تجد من ينظر لك فى شفقة ، ويقول لك : أنت لاتفهم شيئًا .. إن شركات الدواء العملاقة التى تنتج عقار (الإنترفيرون Interferon) تربح من ورائه المليارات ، ويهمها محاربة أى عقار جديد يقلل مكاسبها . عندها تشعر أنت بالخجل وبأنك كنت طفلاً ساذجًا .. إذن العقار الجديد ليس فاشلاً .. شركات الأدوية العملاقة ومافيا الدواء هى التى تشيع عنه ذلك .. ولكنك تعود لدارك مع شعور الخجل والسذاجة ، فتجلس وحيدًا فى غرفتك وتتساءل : لكن ماذا لو كان العقار الجديد بلانفع فعلاً ؟ ألا يمكن أن تكون هناك معجزة ما ويكون العقار الجديد سيئًا ؟ كيف تعرف وقتها ؟

هذا المثال ينطبق على كل شىء فى حياتنا ، والآن هذا

الأخ يطالبنى بأن أعتقد أن الأوزون مؤامرة من الشركات العملاقة ..

قال لى ، وقد لمح عدم التصديق على وجهى :

- « نعم .. إن فترة احتكار هذه الشركات لمنتجات (الكلوروفلورو كاربون) قد قاربت الانتهاء ، وسعر هذه المنتجات رخيص متاح للجميع .. هكذا صنعت تلك الشركات منتجات باهظة الثمن تفوق سعر الأولى خمس مرات .. وروجت أبواق الإعلام لتملأ حياة الناس بكابوس الأوزون .. والنتيجة أنها ستبيع منتجاتها الجديدة وتربح المليارات .. وعلى فكرة ليس هذا رأيى وحدى بل هو رأى عالم فرنسى عظيم هو (تازييف) .. هناك ثقب أوزون لكنه موجود من زمن سحيق ، ولم تسببه رشاشات الإسبراى التى نستعملها .. ولا خطر منه على البشر .. هذه خلاصة أبحاثى .. »

ثم أشار إلى نفسه فى نوع من التواضع وقال :

- « وسط هذا الضجيج المتعالى .. من يصدق شخصًا مثلى يغرد خارج السرب ؟ ألم أقل لك إننى ألعب دور عبيط القرية ؟ »

فكرت فى كلامه طويلاً ثم قلت :

ـ « نظرية المؤامرة من جديد وأنا أكرهها .. لكن سؤالى هو : أنا غير متخصص ولا أعرف مدى صدق كلامك من عدمه .. فكيف تثبت ؟ »

تحسس جانب رأسه وتأوه ثم قال :

ـ « هذا هو الدليل الأول .. لو كان كلامى بلا قيمة ، فلماذا يتسلل أحدهم ليرى ما أقوم به ؟ لاحظ أن هذه ليست المحاولة الأولى .. »

ما لم يعرفه هو تلك المحادثة بينى وبين (باركر) .. لماذا كان (باركر) مهتمًا إلى هذا الحد ؟

* * *

« .. أنت تفهم ما أريد قوله ... إنه يسمح لهذا الفرنسى المجهول بأن يأتى هنا .. يجمع بيانات .. يتغلغل فى كل شىء .. ثم يصدر نتائج تحمل اسمنا .. أنا أمقت هذا .. »

* * *

« .. أريد تقريرًا كاملاً عن المعلومات التى جمعها هذا الرجل ، وماذا يستخلص منها .. أريد معرفة أين يذهب وماذا يفعل .. سيكون هذا سهلاً عليك لأنك مكلف رسميًا بأن تكون ظله .. »

* * *

لو كان (لومبان) بالضلال الذى يصفونه به ، فلماذا اهتم (باركر) بالأمر إلى هذا الحد ؟

شخص تسلل وضربه ...

هذا دليل حقيقى .. لكنى لم أر ضربات .. لا توجد آثار .. سمعت عن بعض العلماء الذين يحاولون ادعاء الأهمية بأن يزعموا أن أبحاثهم سرقت أو أنهم تعرضوا لمحاولات اعتداء .. أحدهم فى الولايات المتحدة كان يتلقى مكالمات تهديد سجلتها الشرطة ثم اتضح أنه كلف صديقًا بهذه المهمة ..

هل الأمر كذلك ؟

كأنما هو يسمع أفكارى بوضوح قال (لومبان) :

- « الاعتداء علىّ هو الدليل الأول لك .. لو سمعت أننى اختفيت فى ظروف غامضة أو قتلت يومًا ما ، لكان هذا هو الإثبات النهائى لصحة نظرياتى .. »

ـ « سأتذكر هذا وقتها يا سيدى .. »

★ ★ ★

مر يومان أنهى خلالهما (لومبان) عمله ..

صحيح أننى لم أكن ذا عون كبير له ، لكنى على الأقل أدخلت بياناته إلى الحاسب الآلى ، وطلب من (جرترود) ما يريد .. وفى النهاية أعلن أنه انتهى من هذا البلد ..

قلت له فى لحظة الوداع :

ـ « أنت تقوم بمسح .. وكما قلت لك سابقًا أنت تستعمل أعدادًا قليلة .. وحدة (سافارى) لا تمثل (الكاميرون) .. ما تقوم به يحتاج إلى تعاون الدولة ذاتها .. يحتاج إلى منظمة الصحة العالمية »

قال باسمًا وهو يصافحنى :

ـ « لن يتعاون أحد معى .. لهذا أقوم بما أستطيع عمله .. »

وابتعد نحو السيارة التى ستقله إلى المطار ..

قصير القامة ضخم الرأس ملىء بفكرة جعلته يتضخم عدة مرات ..

(دون كيشوت Don Quixote) .. الفارس الذى قرر أن يمارس الفروسية بعد انتهاء عصر الفرسان .. خوذة من الورق المقوى وحصان عجوز وتابع أحمق .. ثم يخرج إلى العالم ليواجه الطواحين معتقدًا أنهم مردة أشرار .. ما هى فرصة هذا الفارس فى الفوز ؟ ما جدوى ما يقوم به ؟

لا أعرف كيف يبدو (دون كيشوت) .. لكنى فى هذه اللحظة تصورته فى شكل (لومبان) .. وحيدًا متمردًا ضعيفًا عنيدًا متمسكًا بفكرة لا تبدو صائبة لأحد ...

كانت هذه آخر مرة ألقاه فيها ..

وحين عرفت بعد عام من المدير أنه توفى فى شقته فى باريس ، لم أندهش كثيرًا ...

- « كيف مات ؟ »

- « طعنات بسكين .. يعتقد رجال الشرطة أنها محاولة سرقة .. »

- « هل وجدوا الجانى ؟ »

- « لا .. لكن يبدو أنه كان يعرفه جيدًا .. »

★ ★ ★

لو سمعت أننى اختفيت فى ظروف غامضة أو قتلت يومًا ، لكان هذا هو الإثبات النهائى لصحة نظرياتى ..

* * *

(دون كيشوت) قد لقى حتفه .. فهل صرعته الطواحين التى واجهها بحماقة ؟

أم أن الطواحين لم تكن كذلك ؟ كانت مردة أشرارًا بالفعل .. وقد قتلوه ؟

هل كان مجرد واهم بائس مات فى حادث سرقة سخيف ، أم أنه كان عبقريًا أوشك أن يغير حقائق العالم ومن ثم تم التخلص منه ، على طريقة (إيكاروس Icarus) الذى ذابت أجنحته لأنه اقترب من الشمس ـ الحقيقة ـ أكثر مما يجب ؟

لن أعرف الحقيقة أبدًا ..

كل ما أعرفه هو أن بيئتنا فى خطر .. وعلينا أن نحميها .. بثقب أوزون أو بدونه .. نحن أنهكنا فى قرن واحد موارد هذا الكوكب الجميل ، وقد صار علينا أن نأخذ حذرنا أو ندفع الثمن غاليًا ...

* * *

الدائرة الأولى

ثقب فى الكون

2

إنها الأشعة السينية!

هذا هو الحل الذى يبرهن على نظرية (ويلر) الخاصة بالثقوب السود ..

لقد أطلقت وكالة (ناسا) مرصدًا عملاقًا إلى الفضاء ، ليلتقط صورًا للكون .. بالأحرى يلتقط صورًا للغاز النجمى الذى يخرج من نجم براق ، متجهًا إلى بقعة خفية غامضة ..

قال (ويلر) وهو يتأمل الصور :

- « تصور كتلة ازدادت جاذبيتها إلى حد مروع .. إلى حد أن الذرات تلتحم لتكون كتلة ذات كثافة لانهاية لها .. لقد كان النجم ضخمًا إلى حد أن جاذبيته الخاصة هى التى سحقته .. صار صغيرًا جدًا وانتهى إلى أن صار (لاشىء) ! لقد تنبأ (إينشتاين) بهذا ، لكننا للمرة الأولى نبرهن عليه .. »

سأله أحدهم :

ـ « ولماذا ينجذب الغاز نحوه ؟ »

ـ « كل شيء يقترب من الثقب الأسود يدخل في دائرته .. يصير في نفوذه .. حتى الضوء لايستطيع الفرار منه لذا لانرى الثقب الأسود .. »

بالفعل تزدرد الثقوب السود نجومًا بأكملها .. إنها تشبه البالوعة التى تمتص مجرات كاملة .. وخارج المجرة توجد نقاط غامضة يطلقون عليها اسم (كوازار Quasar) ، هى على الأرجح ثقوب سوداء تمارس فى نشاط عملها فى ابتلاع مجرات كاملة .. ولهذا الالتهام صخب تلتقطه أجهزة الاستماع كأنه بالفعل صوت تماسيح تلتهم فرائسها .. لن أندهش لو تجشأ أحد هذه الثقوب يومًا أو تقيأ ..

والفكرة على كل حال تصيب بالدوار .. الكون الذى نعرفه يتم امتصاصه إلى حفرة عظمى ، وعالم الفلك الأمريكى (هربرت جورسكى) يقول :

ـ « لربما كان الثقب الأسود النهائى هو الكون ذاته .. »

هناك مراحل للعملية يعرفها العلماء وعشاق الخيال العلمى .. القزم الأبيض .. النجم النيوترونى .. إلخ ...

سأل أحد الطلبة أستاذه (ويلر) :

- « وما دور أشعة (إكس) هنا ؟ »

قال (ويلر) وهو يتأمل إصبعه المبتور :

- « نحن لا نرى الريح لكننا نرى أثرها على الأشجار .. كذلك نحن لا نرى النجم الأسود لكن نرى أثر جاذبيته .. وأشعة إكس قادرة على مسح الفضاء بدقة ، فترى النجوم التى تسير فى مسار مترنح يوحى بأن شيئًا ما يجذبها .. ثم يتم الامتصاص .. تصور نجمًا يغوص فى نجم آخر .. هذا الاصطدام المخيف يولد حرارة قدرها خمسمائة مليون درجة مئوية .. ينطلق من الاصطدام فيض من أشعة إكس .. هذه الكمية الثمينة من الإشعاع لا تصل للأرض لأن غلافنا الجوى يمتصها .. لهذا نطلق المراصد إلى الفضاء لتصور المشهد الكونى الرهيب .. »

★ ★ ★

(أوهورو) ينطلق !

(أوهورو) - أو الحرية باللغة السواحلية ــ ينطلق من (كينيا) عام 1970 ليكون أول مرصد فضائى لأشعة إكس .. وهكذا يلتقط المرصد أول إشارات سينية من كوكبة الدجاجة .. تلك الإشارات التى سيطلق عليها فيما بعد اسم (كوكبة الدجاجة إكس 1) ..

هذا هو أول ثقب أسود يتم رصده ..

لقد تنبأ (أينشتاين) بأن جاذبية الكون ستتزايد يومًا ، وينتهى الأمر بالكون إلى الانكماش .. ليس الكون فحسب بل الزمن والفضاء ..

علماء آخرون يرون أن الكون لن ينكمش لكنه سيغيب فى أحد هذه الثقوب السود ..

إلى أين ؟

لا أحد يعرف ...

هل تكون هذه الثغرة هى الممر الذى يقود إلى كون آخر بمقاييس فيزيائية أخرى ، كما تنبأ (برادبورى) فى رائعته (2001 : أوديسة فضائية) ؟

لا أحد يعرف ...

ربما يعرف الحقيقة أحفاد أحفاد أحفاد أحفاد أحفاد أحفاد أحفاد أحفادنا ..

وربما تقوم الساعة غدًا .. وينتهى الكون كما نعرفه ...

★ ★ ★

خاتمـــة

مررت على (بسام) فـى غرفتـه ، فوجدتـه جالسًا على الفراش يكتب خطابًا ما ..

فلما رآنى سارع بإخفاء الورقة تحت الدفتر الـذى يستند إليه ، وابتسم فى حرج ...

سألته متظاهرًا بأننى لم أر ما حدث :

ـ « هل تشعر بتحسن ؟ »

ـ « بالتأكيد . »

وأشار إلى القناة الوريدية المثبتة إلى ظهر يده ، وقال :

ـ « أوشكت على انتهاء حقن المضادات الحيوية .. لا أعـرف إن كنت أنقذت حياتى أم لا ، لكنى لك شاكر .. »

قلت له فى تواضع :

ـ « لم أنقـذ حياتـك .. فقـط أنقذتـك مـن العمى أو الشلل أو نزف الكلى .. »

ثم سألته لأغير الموضوع :

- « إذن نتيجة المزرعة قد ظهرت .. »

- « وماذا كنت تتوقع ؟ كانت هنـاك عدوى بكتيريـة فى دمى .. وقد وجدوا الجسيمات الدقيقة المستتبتة فى قلبى ، بعدما استخدموا ذلك المسبر المثبت إلى منظـار .. لقد كـان تشخيصك دقيقًا .. »

تشخيصى دقيق ! أنا أسـمع الكثير من المديح لكنـى لـم أسمع الكثير مـن الإطراء لمستواى العلمـى .. هذا شعور غير معتاد .. كان المايسترو الإيطالى (توسكانينى) مغرورًا بفنه ، ويصغى لكل من يمتـدح قيادتـه للفرقـة بملـل .. كأنـه يقول : ليكن .. أنا أعرف مستواى أفضل منك .. لكن إحـدى السيدات أطرته ذات مـرة فـاحمر وجهـه خجلاً ، وطـار مـن الفرح .. سألوا السيدة عما قالته له ، فأجابت : قلت لـه إنـه وسيم !

نعم .. كـان الرجـل يعرف مزايـاه جيدًا حتـى مـل مـن يمدحونها .. أما السـيدة فقالت له الإطراء الوحيد الذى كان

يتمناه .. والذى لم يسمعه قط ، لأن المجنون فقط يمكن أن يصف (توسكانينى) بالوسامة ..

الآن أنا أسمع من يقول إننى طبيب بارع حقًا ، ولطالما تمنيت لو سمعت هذا الإطراء ، بدلاً من : أنت ظريف .. أنت مشاكس .. أنت ملىء بالحيوية ..

سألت (بسام) :

ـ « أعتقد أنك بعد هذا الخطاب ستنسى كل شىء عن الثقب ؟ »

سألنى فى براءة :

ـ « أى خطاب ؟ »

ـ « خطاب الحب الذى تكتبه لـ (حبيبة) .. »

ومددت يدى فانتزعته من تحت الدفتر ولوحت به أمام عينيه فصاح محتجًا وانتزعه من يدى .. قلت له :

طبعًا وصفت لها معاناتك وعذابك ، وكيف كنت تواجه الموت لكنك ترى صورتها فتهلل .. أو كما يقول (عنترة) :

ولقد ذكرتك والرماح كأنها .: أشطان بئر فى لبان الأدهم

قال فى غيظ وهو يعيد تخبئة الخطاب :

- « نعم .. نعم .. شىء من هذا القبيل .. بالمناسبة استعملت هذا البيت من الشعر بالذات .. »

- « بعد هذا ستنسى كل شىء عن الثقب ؟ »

نظر لى فى حيرة وتساءل :

- « أى ثقب ؟ »

★ ★ ★

فى التاسعة مساء انتهت د. (ماى فاى لين) من الجراحة ...

ركعت جوار المحفة التى كانت (برنادت) ترقد عليها ، ومددت يدى أمرر أصابعى بين خصلات الشعر الأشقر الحبيب .. كنت طيلة حياتى أمقت الشعر الأشقر .. لكن كان هناك استثناء واحد بالنسبة لى ...

ركعت جوارها ولثمت كفها الباردة فتأوهت وأدارت رأسها إلى الجهة الأخرى ..

مرت بجوارى الطبيبة الصينية ، وهى تلهث ونزعت قناعها وألقت به أرضًا .. تحسست نبض (برنادت) ثم قالت بفرنسيتها العجيبة :

ـ « هو يكون بخير .. هو يكون بخير .. »

لقد استغرقت عملية التفريغ عشر دقائق بالضبط .. إن هذه الصينية بارعة .. أعرف هذا ..

منذ ساعة انفتحت بوابة الجحيم .. بعد حالة التحسن الوقتى التى مررنا بها ، دخلت (برنادت) الحمام لتفاجأ بأن الأمور خرجت من السيطرة .. الإجهاض المنذر صار حتميًا ...

لا أعرف كيف اتصلت بـ (سافارى) لتأتى السيارة ، ولا كيف حملتها حملاً إلى غرفة الجراحة .. تم كل شىء خلال ثوان .. جاءت د. (ماى فاى لين) وفحصتها بسرعة ثم هزت رأسها .. لقد أعلن الرحم عصيانه فلابد من استكمال العملية ..

وقفت خارج غرفة الجراحة أرتجف ..

وجاء ذلك الطبيب الأمريكى الودود الذى أخبرنى بالقصة أول مرة ، ليربت على كتفى وقال لى :

- « لا تحزن .. أنت شاب وهناك فرص أخرى .. »

تذكرت أمى حين كانت تصف لى شبابها : إن فتيات اليوم مدللات .. بعد زواجى من أبيك لم أكن وحدى مرة واحدة .. إما أن أكون حبلى أو أعالج من الإجهاض .. الفلاحة تلد وهى ذاهبة للسوق لبيع الخضر ، لهذا تلف الوليد جيدًا ، ثم تواصل طريقها للسوق وتبيع الخضر برغم كل شىء .. ثم تعود فى نهاية اليوم لبيتها حاملة فى (المشنة) الوليد وحصيلة ما باعته .. خذ عندك فتيات اليوم - مثل (الهائم) التى ستقع فى غرامها يومًا - اللاتى تلد الواحدة منهن طفلاً وحيدًا مهزولاً فتملأ الدنيا صراخًا ، وتطلب أن يخدروها أثناء الولادة ، وتقضى حياتها تلوم زوجها على أنه كان سبب عذابها .. وتقسم على ألا تلد طفلاً ثانيًا أبدًا ..

كنت أقول لها مداعبًا : هل تقترحين أن أتزوج فلاحة إذن ؟

فتقول وهى تلكمنى فى كتفى : بل تتزوج واحدة قوية مثل أمك .. تتزوج امرأة (رجلاً) ..

نعم هناك فرص أخرى .. ما زلنا شابين لحسن الحظ ...

من رحمة الله بنا فى هذه الظروف أن قلقى على (برنادت) قضى على كل حزن يمكن أن أشعر به لفقد الطفل .. بل إن شعورى بهذا القلق أو إظهاره ليعكس قدرًا لا بأس به من الأنانية .. كأننى أقول : فلتذهب هى إلى الجحيم لكنى أريد طفلاً !

بدأت تفيق ..

دنوت منها وأمسكت بيدها الباردة البلورية ..

كانت دامعة العينين ...

قالت همسًا :

ـ « متأسفة يا (علاء) .. كنت تتمنى أن تحقق حلم الأبوة ، لكنى لم أستطع أن أحققه لك .. »

رفعت إصبعى لشفتها آمرًا :

- « اصمتى يا حمقاء .. »

ولم أتكلم .. إن الكلام يفسد هذه الأمور .. لقد وصلت رسالتى كاملة من دون أن أنطق بحرف واحد ..

★ ★ ★

وعندما جاء المساء خرجت إلى الشرفة خارج غرفة (برنادت) فى وحدة (سافارى) ..

كانت نائمة ، وكنت قد قررت أن أمضى الليل معها هنا .. برغم أن الطبيبة الصينية قالت إن بوسعنا الرحيل لو أردنا ، إلا أننى خشيت أن يحدث شىء فى الليل ..

الليل الإفريقى وضوء المصابيح ..

ولكن ...

لماذا أبكى وأنا تحملت فقد الجنين بسهولة ؟ لا أعرف .. أشد ما يفزعنى هو البكاء الذى لاسبب له ..

وشعرت بأن فى روحى ثقبًا .. ثقبًا يتسع .. ويمتص كل ذكرياتى وحياتى وأحلامى ..

وددت لو كان شخص أعرفه بقربى .. أحكى له كل شىء .. أقص عليه حكاية الثقب ..

ونظرت إلى السماء ..

هناك ثقب فى الكون .. ثقب أسود يمتص المجرات والعوالم كاملة .. يمتص الزمن ووجودنا نفسه ..

هناك ثقب فى الأوزون تمر من خلاله الأشعة القاتلة إلى عالمنا .. أو لربما لم يكن ...

ثقب فى قلب (بسام) يحكى عنه لحبيبته فى تونس ، بلهجة أقرب إلى الفخر ..

ثقب فى جيبى جعلنى أؤذى (برنادت) وجعلها تتحمل آلامها لترضينى ..

ما معنى هذا ؟

كل هذه الثقوب لها معنى لكنى لا أستطيع الإمساك به ..

ما قيمة ثقب فى قلب أو ثقب فى جيب أو ثقب فى حياة كاملة ، وما أهميته أمام ثقب كونى عملاق بهذا الحجم ؟

ربما هذه الثقوب ليست عيوبًا فى حياتنا .. ربما هى حياتنا ذاتها ..

علينا أن نقبلها .. أن نحبها .. كما هى ...

ثمة معزوفة كونية رائعة بالغة التناسق .. فمن يبالى بتفاهاتك الصغيرة وإحباطاتك الدنيوية ، بينما الأقزام البنية والبيض والمادة المظلمة والثقوب السود تعزف ملحمتها العظمى ؟؟؟

سوف نملأ الدنيا صخبًا وتلوثًا ثم نمضى ويأتى من بعدنا ..

بينما الكون يتحرك لغاية عظمى ..

كنت أتمنى أن أعرف أكثر .. أن أتكلم أكثر ...

لكن هذا للأسف خارج نطاق عملنا هنا فى (سافارى) .

★ ★ ★

د . علاء عبد العظيم

(أنجاوانديرى)



سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكى يظل حيا ولكى يظل طبيبا

حكاية ثُقب

لا لن نتكلم اليوم عن وباء مخيف يجتاح الأدغال ، ولا حملة معقدة ترتبها وحدة (سافارى) ، ولا عن السحرة الإفريقيين المتوعدين بالويل .. لن نتكلم عن ظاهرة غامضة ولا طقوس وثنية منسية .. القصة اليوم أبسط من هذا بكثير .. إنها حكاية ثقب ..



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم
قصاصات

الثمن فى مصر ٢٥٠ قـ
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

